الباب الخامس

سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

ان الله تعالى يبعث لهذه الامة في كل قرن من يجدد لها أمر دينها ، ويدعو الى واضح السبيل ومستبينها ، كي لا تبطل حجج الله وبيناته ..

فكل عصر يمتاز فيه عالم بذلك ، يدعو الى تلك المناهج والمسالك وليس من شرطه ان يقبل منه ويستجاب ، ولا ان يكون معصوماً في كل ما يقول ، فان هذا لم يثبت لاحد دون الرسول .

ولهــذا المجدد علامة ، يعرفها المتوسمون ، وينكرها المبطلون ، اوضحها واجلاها : محبة الرعيل الاول من هذه الامة والعلم بمــا كانوا عليه من اصول الدين .. وأسها الاكبر الجليل : معرفة الله ..

وقد اختصكم الله تعالى . من نعمة الايمان والتوحيد بخالصة ، ومن عليكم بمنة عظيمة صالحة من بين سائر الامم واصناف الناس في هذه الازمان ، فأتاح لكم من احبار الامة وعلمائها :

حبراً جليلا ، وعلماً نبيلا ، فقيهاً عارفاً بما كان عليه الصدر الاول ، خبيراً بما انحل من عري الاسلام وتحول ، فتجرد الى الدعوة الى الله ورد الناس الى ما كان عليه السلف .. وترك التعلق على غير الله من الأنبياء والصالحين وعبادتهم والاعتقاد في الأحجار والاشجار والعيون والمغار ..

« من رسالة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ، الى الامام فيصل »

الفصل الأول

ولادة الشيخ وأسرته ونسبه وتعليمه

رؤيا سليمان

لا تخلو سير العظماء ، أو سير أكثرهم ، من أسطورة أو رؤيا ... يجعلونها بين يدي ولادتهم ، أو في أول طفولتهم ، كأنها تبشير أو إرهاص ... بما سيكون لهم من شأن !

وأنت تجد في الكتب الغربية ، التي تبحث في تاريخ نجد والحركة الوهابية ، قصة رؤيا رآها الشيخ سليمان بن علي آل مشرف تبشر بمجيء ولد من صلبه ، يغير معتقدات أهل نجد !

وقد بدا لنا أن نتتبع هذه القصة في مصادرها الأولى ، فثبت لنا أن أول من نشرها في الغرب ، هو المؤرخ الفرنسي « كورانسيز » ، ولعله قرأها في تقرير أرسله « جان ريمون » عام ١٨٠٦ م . من بغداد إلى الامبراطور نابوليون .

قال كورانسيز :

« هناك قصة منتشرة بين النجديين ، وهي أن الشيخ سليمان بن علي ، رأى فيما يرى النائم أن شعلة خرجت من بدنه وانتشرت في الصحراء فأحرقت خيامها ، ومضت إلى المدن فدمّرت دورها .

وقد سأل سليمان بعض العارفين أن يفسروا له رؤياه ، فقالوا له : سيولد لك ولد ، يكون له في الدنيا شأن عظيم ومقام كريم ، يبطل معتقدات أهل نجد وعاداتهم ، ويدعو إلى الدين الحق .

... وتحقق هذا الحلم ، في حفيده محمد بن عبد الوهاب ! »

كان لقصة هذا الحلم دوي كبير ، وتناقلها كثير من المؤرخين والرحالة الأوربيين في صيغ مختلفة ، ويزعم « ملت بورن » أن أهل نجد ما صدقوا الشيخ محمد وتابعوه إلا بسبب هذا الحلم !

أما الكاتب الفرنسي دونارسيا – وهو من أوائل الفرنسيين الذين كتبوا عن الوهابية – فيقول :

« إن أحداً لا يصدق أن هذا الحلم ... هو الذي حمل الشيخ على الدعوة إلى التوحيد ، أو كان ذا أثر في إقبال الناس على دعوته .

وأكبر الظن أن هذه القصة إنما وضعت بعد انتصار الشيخ ، وكانت « محاولة ساذجة » ، لتفسير نجاحه العظيم . »

وفي اعتقادنا أن هذه القصة ، وإن تكن موضوعة ، جديرة بأن يشار اليها ، لكثرة المؤرخين الغربيين الذين تناقلوها ، ولأنها ... سمعت قديماً في مجالس بغداد!

وهي ، بعد ذلك ، حلم ... لا يترتب عليه حكم !

ولادة محمد بن عبد الوهاب

كانت (العيينة) أجمل بلدان نجد وأغناها ، وكان عدد سكانها خمسة وعشرين ألفاً .

وكان في العيينة بيتان رفيعان : بيت الإمارة ، أسرة آل معمر ، وبيت الزعامة الدينية والعلم : أسرة آل مشرف .

وآل مشرف من بيت الرئاسة في بني تميم ، فنسبهم عريق ، ومجدهم قديم ، ولهم في الجاهلية وأول الإسلام مفاخر لا تحصى ؛ ولكنهم جمعوا إلى النسب فضيلة العلم والدين والصلاح ، ففيهم العلماء الفقهاء ، ومنهم المفتون والقضاة ، كان

العلم يجري في دمائهم ، فهم يتوارثونه كابراً عن كابر ، وقد عرف التاريخ ، في الشرق والغرب ، أسراً ، كأسرة آل مشرف ، كان ينبغ فيها الأطباء أو القضاة أو الشعراء ، جيلاً بعد جيل ، والله سبحانه يختص بنعمته وبركته من يشاء !

وفي عام ١١١٥ هـ . بُشّر الفقيه العالم ، الشيخ عبد الوهاب بن سليمان آل مشرف بولادة ابن له ، فسمّاه (محمداً) ، تيمناً باسم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يرجو أن يصبح ابنه ، متى كبر ، عالماً وقاضياً مثله ... ولكن القدر أعدّه لمقام أعظم من ذلك كثيراً ! (١)

---

١ – يقول زيني بن دحلان ان ولادة الشيخ كانت عام ١١١١ هـ . وتقول لادي بلنت انه ولد عام ١١٠٣ هـ . ولكننا اخترنا سنة ١١١٥ هـ . اتباعاً لمؤرخ الشيخ (ابن غنام) ، فهو أعلم منهما بذلك .

ويذكر ابن بشر ان السلطان العثماني (مصطفى) خلع في نفس السنة التي ولد فيها محمد بن عبد الوهاب ، وتولى مكانه اخوه السلطان (احمد الثالث) .

والحق ان تلك السنة كانت نعمة على تركيا ونجد . أما نجد فسوف ينقلها وليد هذا العام من الظلمات الى النور . وأما تركيا فقد تخلصت من سلطان مدمن للخمر ، منحل في الرذيلة ، وتولاها سلطان محب للعلم والأدب ، أنشأ أول مطبعة في مدينة استانبول ، واستطاع قهر الروس الذين طمعوا في اغتصاب جزء من ممتلكاته !

والد الشيخ :
عبد الوهاب بن سليمان

كان عبد الوهاب عالماً فقيهاً ، وإن لم يبلغ درجة أبيه سليمان ، ويقول الفقي إنه كان « مثالاً للعدل والفضل ، وألّف عدة رسائل في الفقه والتفسير ، وكان مشهوراً عند الناس بالتواضع وسهولة الأخلاق ، وكرم الطباع ولين العريكة ، وكان يقرأ لطلاب العلم في مسجد العيينة دروساً في الفقه والتفسير والحديث . »

وفي عام ١١٣٨ هـ . وقع في العيينة الوباء المشهور الذي أفنى غالب أهلها ، ومات فيه أميرها الذي لم يكن أحد يضاهيه في نجد – في الرياسة وقوة الملك والعدد والعدة والعقارات والأثاث – وتولى بعده حفيده الملقب بخرفاش ، فوقع اختلاف بينه وبين عبد الوهاب ، فعزله عن القضاء ، فانتقل عبد الوهاب ، عام ١١٣٩ هـ . ، إلى حريملا ، وتولى قضاءها ، وبقي مقيماً فيها حتى وفاته ، عام ١١٥٣ هـ .

وخلال ذلك ، عاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب من رحلته الطويلة إلى نجد ، فأقام عند أبيه في حريملا ، وكان يدعو إلى التوحيد وينكر ما تفعله العامة من الشرك والبدع ، قال ابن بشر : « وكثر منه الانكار لذلك ولجميع المحظورات ، حتى وقع بينه وبين أبيه كلام وكذلك وقع بينه وبين الناس في البلد . »

ويزعم المؤرخ الفرنسي « ميشو » ان عبد الوهاب كان يتعاطى أو يترخص في نوع من الربا ، وأن ذلك كان سبب عزله من القضاء ، ثم كان سر الخلاف

بينه وبين ابنه ، وهذه التهمة ، فيما نعتقد ، محض افتراء ، فالخلاف الذي قام بين الشيخ وأبيه ليس أكثر من مظهر من مظاهر حب الأب الشديد لولده وخوفه عليه من انتقام الأمراء وعداوة الرؤساء ، فكان يأمره بالاعتدال والقصد ، وأخلاق عبد الوهاب كانت فوق مستوى الشبهات ، يشهد له بذلك رجال عرفوا بخصومتهم للحركة الوهابية ، كابن دحلان ، الذي وصف عبد الوهاب بأنه « من العلماء الصالحين»، وربما مدح الأب، لينال من الابن، والله أعلم.

ويقول جان ريمون ، في تقريره إلى الامبراطور نابوليون : « كان عبد الوهاب يعتنق نفس الأفكار التي يدعو اليها ابنه ، ولكنه كان كثير الخوف على نفسه وولده، فما كان يحب أن يعرف عنه ذلك . »[1]

---

١ – يقول فيلبي : (لقد قيل ان الوالد عمد كثيراً من المرات الى حد جوح ذلك الشاب الذي كانت حماسته للعمل في سبيل الله ... في مجتمع غير مستعد لقبول فكرة ترك الحياة السهلة.
كانت مراعاة احكام الاسلام صفة لجميع اولئك الذين يحترمون انفسهم في نجد ... الا انهم كانوا يشفقون على الجهلة ... ويترخصون في تطبيق الشعائر الاسلامية .)

جده : سليمان بن علي

كان جده ، سليمان بن علي ، قاضي العيينة في زمن عبدالله بن معمر ، [1] وكان أعلم رجال نجد وأفقههم ، بـــل كان مرجعهم في الفقه الحنبلي ، يأتي إليه الناس من الأماكن البعيدة لأخـــذ العلم عنه ، ويكاتبونه ليظفروا منه بالفتاوى الرشيدة والأجوبة السديدة ، على مسائل استعصى على العلماء الآخرين حلّها !

ويقول « الفقي » إن الشيخ سليمان اشتهر ، فوق علمه وخلقه ، بكثرة البذل « وإكرام الفقراء من طلبة العلم وغـــيرهم من الوافدين إليه ، وكانت تطمح إليه أنظار طلاب العلم والفقه الحنبلي ، وتتلمذ له أكثر علمـــاء نجد في علمي التفسير والحديث ، وكان لشدة شغفه بنشر العلم وتعليمه ، يؤوي طـــلاب العلم وفقراء التلاميذ في داره وينفق عليهم من خالص ماله ، وكان ذا هيبـــة ونفوذ لدى الولاة والأمراء في مختلف جهات نجد ، فكان ملاذاً وملجأ لكل المظلومين » .

ويقول ابن بشر إن الشيخ سليمان ، المتوفى عام « ١٠٧٩ » هـ ، كان « فقيه زمانه ، متبحراً في علوم المذهب ، وانتهت إليه الرياسة في العلم » ، « .. وأخذ عنه جماعة ، منهم ابنه عبد الوهاب .. »

« .. رأيت له سؤالات عديدة وجوابات كثيرة وصنف كتاباً في « المناسك » . وذكر لي أنه شرح « الإقناع » ، فلما علم أن منصوراً البهوتي ، شرحه ، أتلف

---

١ - ذكر ابن بشر لسابقته في عام « ١٠٧٢ » أن أمير العيينة عبد الله بن معمر سار في عسكره الى قرية البير ومعه القاضي سليمان بن علي .

سليمان شرحه » !

ويستدل « فيلبي » ، بهذه الحادثة ، على أن سليمان كان ذا شخصية فذة !

وعندنا ، أن هذا العمل إنما يدل على عظمة الشيخ البهوتي وجلالة قدره في نفس سليمان ، فقد كان الشيخ البهوتي أكبر علمـــاء الحنابلة في زمانه ، وينقل ابن بشر نفسه عـن بعض المشايخ القدامى أنهم كانوا يقولون : « كل مـــا وضعه متأخرو الحنابلة من الحواشي على أولئك المتون – يعنون الإقنـــاع والمنتهى – ليس عليه معول ، إلا ما وضعه الشيخ منصور ، لأنه هو المحقق لذلك ، إلا حاشية البهوتي ، لأن فيها فوائد جليلة » .

نسب الشيخ

آل مشرف

كانت أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهـــاب تعرف ، في زمـــانه ، باسم « آل مشرف » .

وبين الشيخ ، ، وبين مشرف ، رأس الأسرة ، تسعة آباء ، فهو :

« محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد ابن محمد بن بريد بن مشرف .» [1]

الوهبة

وقبل مشرف ، كانت الأسرة تعرف باسم « الوَهَبَـــة » نسبة إلى وهيب . ومنها : (آل ثاني) ، أمراء قطر . [2]

وقد ساق لنا ابن بشر أسمـــاء آباء « مشرف » ، حتى « وهيب » ، على النحو التالي :

« مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب »

---

١ – واسقط (ابن بشر) من السلسلة اسمي (بريد بن محمد) وتابعه في ذلك عدد من المؤلفين .

٢ – عمر رضا كحالة : معجم القبائل العربية .

زيد مناة

وينتمي الوهبة إلى زيد مناة بن تميم .

وتورد لنا كتب الأنساب أسماء آباء وهيب حتى زيد مناة ، على النحو الآتي :

« وهيب بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبة بن سنيع بن نهشل بن شداد ابن زهير بن شهاب بن ربيعة بن أبي مسعود بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم »[1] .

التقاؤه بنسب النبي محمد (ص)

يذكر النسابون أن تميم هو : « تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان » .

وسواء أكانت هذه السلسلة كاملة الحلقات ، أم لم تكن كاملة ، فإن النسابين مجمعون على أن تميم من ذرية « الياس بن مضر » ، وبذلك يلتقي الشيخ محمد بالنبي محمد (ص) . في جدهما الأعلى المشترك : « الياس بن مضر » .

بنو تميم

إذا خرجنا من دائرة الأسر والبطون ، وجدنا الشيخ ينتمي إلى قبيلة (بني تميم) أو (تميم) اختصاراً ، وهي من أقوى قبائل مضر ، العدنانية ، وأكثرها عدداً ، وأشهرها في التاريخ .

يقول الفرزدق :

(ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا
وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا)

---

١ - انظر كتاب « الكتاب المنتخب في ذكر قبائل العرب » للمغيري ، وقد اخطأ مؤلف الكتاب بزعمه ان زيد هو ابن مناة ، وانما هو شخص واحد : فقد جاء في كتاب « الاصنام » لابن الكلبي : « تميم بن مر ، سمي ابنه: « زيد مناة » . » ، كما يقال « تيم اللات » مثلا . وهذا شيء معروف !

وهناك البيت المشهور :

(إذا غضبت عليك بنو تميم
حسبت الناس كلهم غضابا !) .

هكذا كانت تميم في مرحلة البداوة ، تسير فيسير الناس خلفها ، وتغضب فتغضب الدنيا كلها !

ثم تكاثرت تميم ، وتحضرت ، وتفرقت بين الأسر ، وتوزعت بين البلدان ، ولم تـعُدْ لها « نخوة » عامة يلتقي عليها أفرادها في الحروب والنوازل .[1]

صفات بني تميم

يقول « بركارت » في كتابه « مواد لتاريخ الوهابيين » :

« كان عبد الوهاب من بني تميم ، وكلهم ، تقريباً ، زراع ... وأهم مساكنهم ، في نجد : الحوطة ، على بعد أميال كثيرة على الأقدام من الدرعية .

وتوجد جالية ثانية من تميم ، هاجرت من الحوطة إلى قفار في جبل شمر ، خوفاً من الثأر والدم .

وهناك جالية ثالثة ، نزلت في حمى والي بغداد ، في القرى القائمة بين (الحلة) و (مشهد علي) .

وقد اشتهر رجال بني تميم بطول قاماتهم ، وضخامة هاماتهم ، ولحاهم الكثة ، وبذلك يتميزون من سائر البدو ..

---

١ - يقول عمر رضا كحالة في كتابه : « معجم القبائل العربية » : « تميم .. قبيلة اصبح افرادها من حاضرة نجد ، وجبل شمر والدساكر النجدية تحوي عناصر من تميم، ونظراً لتحضرها فقد انعدمت من بينها الميزات التي تميز الأفخاذ والعشائر ولم يعد بالامكان تفريقها الى فرق . غير انه يمكن القول ان الموجود في نجد من تميم يمكن حصره في ثلاثة بطون وهي :

١ - بطن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم « ومنهم الوهبة، بيت الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآل ثاني امراء قطر » .

٢ - بطن سعد بن زيد .

٣ - بطن عمرو بن تميم .

وهم قوم مدنيون ، أعني يقيمون في المدن ويشتغلون في الزراعة والتجارة ، وقد اشتهرت أسر منهم بالعلم والفضل ، وفي مقدمتها أسرة آل مشرف ، التي ينتمي اليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

أما مذهبهم فمذهب الإمام أحمد بن حنبل ».

الشيخ والعصبية القبلية

يقول والي الشام ، في تقرير عن الحركة الوهابية رفعه الى السلطان العثماني :

« ليس الشيخ محمد بن عبد الوهاب رئيس قبيلة ، ولا صاحب عصبية قوية يحسب لها حساب . »

وهذا كلام حق . فالشيخ لم يكن رئيس عشيرة ، ولا صاحب عصبية ، وقد أكرمه الله بأن جعله زعيم أمة وإمام دعوة ، يهتدي بها الناس جيلاً بعد جيل ، فما كان له أن يوقظ في بني تميم حمية الجاهلية ودعاءها .

على أن الشيخ سواء أكان رئيس عشيرة أم لم يكن،فقد كان من بيت الزعامة، نسباً وحسباً .

فإن كان بنو تميم لا يلبون نداءه ولا يرفعون لواءه ، لانعدام « النخوة » الواحدة بينهم ، فإن شرف محتده ، ومقام أسرته الرفيع ، يجعلان له في النفوس موضعاً كريماً !

---

١ - اورد كتاب « لمع الشهاب » ، شجرة نسب للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ليس فيها صحيح ، الا اولها وهو ان الشيخ هو ابن عبد الوهاب .. وآخرها وهو ان جده الاعلى : زيد مناة ابن تميم، واما بقية الاسماء فما ندري كيف جمعها او جمعوها له . ونحن نثبت هنا هذه الشجرة الموضوعة ، لمجرد الاطلاع عليها ، والحذر منها ، قال !

« حدثنا عبد الله بن غنام الاحسائي اخبرنا محمد بن ماجد نبأ محمد بن ماضي النجدي والكل ثقة ان محمد بن عبد الوهاب هو من بني سنان قبيلة من تميم ، فهو محمد بن عبد الوهاب بن « محمد » ابن علي بن سعد بن سلمة بن فلاح بن عبد الواحد بن حميد بن سالم بن سنان بن عبد الله بن حجلان بن عمر بن وهب بن نافع بن شبيب بن زيدان بن عامر بن مالك بن عدى بن سرداح ابن كعب بن زيد بن عبد الله بن حمد بن معاوية بن قيس بن ربيعة بن ضمضمة بن عامر بن بكر ابن هوازن بن امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم .

هذا ما صح لنا من نسبه والله أعلم » !

نشأة الشيخ وتعليمه ومواهبه

نشأ الشيخ في بيت علم وقضاء وزعامة دينية ، فليس يستغرب منه أن يكون فقيهاً عالماً ، بل المستغرب أن يكون غير ذلك !

فإن كان الشيخ لم يدرك جده علامة نجد، سليمان بن علي،لأنه مات قبل ولادته بمدة غير يسيرة ، فقد كان جو نجد عابقاً بعطره ، ندياً بذكره !

وحيثما أدار طفلنا النابه نظره – بين أقربائه من بيوت آل مشرف – لا يقع إلا على قاض أو فقيه أو طالب عالم : فأبوه « عبد الوهاب » قاضي العيينة وعالمها ، وعمه « ابراهيم » عالم فقيه ، وابن عمه « عبد الرحمن ابراهيم» عالم فقيه، وأخوه « سليمان » مقبل على العلم ، وكل هؤلاء مشهود لهم بالخلق والذكاء ، وهناك عشرات غيرهم !

لم يترك « محمد » داره ، ليذهب الى المدرسة .. كما يفعل أطفال اليوم ، فقد كانت داره نفسها هي المدرسة ، وكان أبوه نفسه هو المعلم .. وهكذا ولد «محمد» في حجرة الدرس،ولما فطمته أمه عن دَرّها،تولى أبوه تغذيته بالعلم وتعهده بالفضيلة.

يصف لنا « ابن غنام » طفولة الشيخ وصفاً جميلاً ، فيقول :

« ولد ، رحمه الله تعالى ، سنة خمس عشرة بعد المائة والألف من الهجرة النبوية في بلدة العيينة من البلدان النجدية ، فأنبته الله نباتاً حسناً ، وجلا به عن طرف الدهر وسنا .

وبقي ، بعد سن الطفولة زمناً يتعلم .. القرآن ، معتزلاً ، في غالب الأوقات

لعب الصبيان ، ولهو الجهال والغلمان ، حتى حفظ القرآن عن ظهر قلب قبل بلوغه العشر .

وكان حادّ الفهم سريا ، وقاد الذهن ذكياً ، سريع الحفظ ، فصيح اللفظ ، ألمعي الفطنة .. »

.. و « كان عبد الوهاب ، أبوه ، يتعجب من فهمه وإدراكه ، قبل بلوغه .. ويقول :

« استفدت من ولدي محمد فوائد من الأحكام » !

.. وكتب إلى بعض إخوانه رسالة نوّه فيها بشأنه ، يثني فيها عليه وأن له فهماً جيداً، وقال : لو يلازم الدرس سنة على الولاية ، لظهر في الحفظ والاتقان آية .. »

وهذه الجملة الأخيرة ، قد يفهم منها أن الشيخ محمد لم يكن يلازم الدرس ملازمة موصولة مستمرة ، ولعله لم يكن راغباً في حفظ الكتب عن ظهر قلب كما حفظ القرآن مع أنه ، ولو اتصل حفظه سنة كاملة، لحفظ من كتبهم شيئاً عظيماً .. وتلك كانت – فيما يبدو – رغبة والده ، ولكنها لم تكن رغبة الولد !

ولما بلغ محمد بن عبد الوهاب السنة الثانية عشرة ، أدرك سن الاحتلام ، أو (البلوغ) الشرعي ، فاستبشر بذلك والده خيراً كثيراً ، ورآه صالحاً للصلاة بالجماعة ، بعد أن اجتمع له شرطا البلوغ والعلم ، فقدمه للامامة ، ثم زوّجه !

وسأل (محمد) أباه الحج ، فأذن له بذلك ووفر له أسبابه ، فحج ، وزار المدينة المنورة وأقام فيها شهرين ، ثم عاد إلى العيينة ، يتابع الدرس على أبيه .

لم يحدد لنا « ابن غنام » المدة التي قضاها الشيخ في العيينة مع أبيه ، بعد عودته من الحج ، وإنما اكتفى بالقول إنه « أخذ في القراءة على والده في الفقه ، على مذهب الإمام أحمد ، فسلك فيه الطريق الأحمد ، ورزق مع الحفظ سرعة الكتابة ، فكان يحير أصحابه بحيث أنه يخط بالخط الفصيح في المجلس الواحد كراساً ، من غير سآمة ولا نصب ... ثم بعد ذلك رحل في العلم ، وسار وجد في الطلب إلى ما يليه من الأمصار ... »

وخلاصة القول في طفولة الشيخ ، أنه كان طفلاً عبقرياً ، تفتحت مواهبه في سن مبكرة جداً، ونضج وبلغ مبلغ الرجال، قبل الأوان، فكان ذلك، لا الرؤيا المزعومة ، أكبر إشارة إلى ما سيكون له من شأن عظيم ومقام كريم .

الفصل الثاني

رحلة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

كان محمد بن عبد الوهاب – كما رأينا – فتى نابغاً ، محباً للعلم ، وكان أبوه عارفاً بمواهبه ، معتزاً به ، فلا عجب إذا أذن له بالسفر الى البلدان العربية الأخرى لسماع الأحاديث والاستزادة من المعرفة ، وكان من عادة أهل نجد ، أن يرحل فتيانهم النابغون في طلب العلم الى الأمصار القريبة والبعيدة ، بل كان هذا شأن العلماء الأجلاء ، فضلاً عن المتعلمين المبتدئين .

« قيل للامام أحمد : رجل يطلب العلم ، يلزم رجلاً عنده علم كثير ، أو يرحل؟

فقال أحمد : يرحل.... يكتب عن علماء الأمصار !

وقال الدكتور أبو شبهة ، في كتابه « أعلام المحدثين » :

« لعل مما يتميز به أئمة العلم في الاسلام ، ولا سيما أئمة الحديث ، كثرة الارتحال وملازمة الأسفار ، وقد جروا في ذلك على سنن الصحابة والتابعين لهم باحسان ، فقد كان الواحد منهم يبلغه الحديث بطريق الثقات فلا يكتفي بهذا ، بل يرحل الأيام والليالي حتى يأخذ الحديث عمن رواه بلا واسطة !

ومن ارتحل في سبيل العلم والرواية الأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد

وغيرهم . وان منهم من لم يذق طعم الإقامة والاستقرار طيلة حياته » .

وقال الشيخ عبد اللطيف ، في كتابه : « مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الامام » : « .. قد عرف طلب الشيخ للعلم ورحلته في تحصيله .. وقد اجتمع بأشياخ « الحرمين » في وقتـه ومحدثيها ، واجازه بعضهم ، ورحـل الى «البصرة» وسمع وناظر ، والى « الأحساء » ، وهي إذ ذاك آهلة بالعلماء ، فسمع من أشياخها ، وباحث في أصول الدين ومقالات الناس في الإيمان وغيره ... فقد كان أهل العلم سلفاً وخلفاً يسمعون الأحاديث ويروونها ، ويحفظون السنن ويستنبطون منها الأحكام ، وهذا عندهم هو الغاية التي يرحل اليها المحدثون ، وينتهي اليها الطالبون ، وليس من عادتهم القراءة في كتب الرأي والفروع . . » .

والحق .. إن الإرتحـال في طلب العلم وسمـاع الحديث من عادة العلماء في كل مذهب ، ولكن الحنابلة كانوا أكثر طلباً للحديث ، لزهدهم في كتب الرأي !

رحلة الشيخ

متى بدأ الشيخ رحلته في طلب العلم ؟ ومتى انتهى منها ؟ وكم أقام في كل بلدة ؟ ومن هم أشياخه ؟ ومـا هي الأمور الجليلة التي وقعت له في رحلته ؟

تلك هي الأسئلة ـ أو بعض الأسئلة ـ التي كان ينبغي لمؤلفي سيرة الشيخ أن يجيبوا عنها ، ولكنهم لم يفعلوا ، وما كتبه مؤرخا نجـد : « ابن غنام » و « ابن بشر » ، عن رحلة الشيخ ، إنما هو وصف مختصر ، لا غناء فيه !

لذلك بحث المستشرقون عن مصادر أخرى تعينهم على فهم هذا الجزء الخطـير ، الغني ، من حياة الشيخ ، الذي نسميه : رحلة الشيخ ، وهو ، في حقيقته : شباب الشيخ كله ، أو أكثره !

وكان المصدر الذي رجع أكثرهم اليه واعتمد عليه ، هو كتاب : « لمـع الشهاب ، في سيرة محمد بن عبد الوهـاب » ، وهو الكتاب المخطوط ، المحفوظ ، في مكتبة المتحف البريطاني بلندن .

سنبدأ بوصف رحلة الشيخ ، كما يرويها ابن غنام وابن بشر ، ثم نثبت رواية

«لمع الشهاب» ونتبع ذلك بنقد لرواية اللمع،نشير من خلاله إلى أقوال المستشرقين والمؤلفين المحدثين .

الرحلة في ابن غنام

يعدّ « ابن غنام » المؤرخ الأول، والأكبر ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وقد حفظ لنا في كتابه كثيراً من رسائل الشيخ وأجوبته على المسائل ، وأخبار الغزوات التي تمت في عهده ، ونحو هذا ..

أما رحلة الشيخ،فيختصرها لنا ابن غنام بقوله: إن الشيخ رحل إلى الأقطار.. فقصد الحجاز والبصرة مراراً ، وقصد الأحساء .. ثم عاد إلى نجد !

ومن الإنصاف أن نضيف إلى ذلك أن ابن غنام حدّثنا عن عالم نجدي — وهو الشيخ عبد الله بن ابراهيم — لقيه الشيخ في المدينة المنورة ، فأجازه من طريقين ، يعني:أجازه برواية حديثين من أحاديث الرسول(ص)،عرف الأول باسم «المسلسل بالأولوية » وهو : « الراحمون يرحمهم الله . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » ، والثاني عرف باسم « المسلسل بالحنابلة » وهو : « إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله . قالوا : كيف يستعمله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل موته » .

وحدثنا ابن غنام أيضاً عن إقامة الشيخ في البصرة ، فقال إنها كانت طويلة ، وانه قرأ بها النحو والكثير من اللغة والحديث ، ورفع فيها أعلام التوحيد ، ونهى عن ذكر شارات الطواغيت أو الصالحين الذين كانوا « يعبدونهم مع رب العالمين » في مجالسه،وبيّن للناس أن محبة الصالحين ليست في صرف الحقوق الربانية إلى قبورهم ولكنها في اتباع هديهم ، وان ناساً من مشركي البصرة كانوا يأتون إلى الشيخ بشبهات ، فيقول لهم الشيخ : « لا تصلح العبادة كلها إلا لله » ، فيبهتون !

الرحلة في ابن بشر

في المدينة

يقول ابن بشر إن الشيخ أقام في المدينة ، وطلب العـــلم على الفقيه النجدي الشيخ عبد الله بن ابراهيم ، من آل سيف ، رؤساء بلد « المجمعة » في سدير ، وعلى المحدث الفقيه الشيخ محمد حياة السندي .

ويروي لنا ابن بشر قصتين لطيفتين وقعتا للشيخ في المدينة مع هذين العالمين .

الأولى : مع عبد الله بن ابراهيم :

قال الشيخ :

(كنت عنده يوماً) فقال لي :

تريد أن أريك سلاحاً أعددته للمجمعة ؟

قلت : نعم !

فأدخلني منزلاً عنده ، فيه كتب كثيرة ، وقال :

هذا الذي أعددناه لها . » !

ما أبلغ هذه القصة ! إن سلاح العلم أفضل سلاح ، لأنه يحيي ولا يقتل !

الثانية : مع الشيخ محمد حياة :

قال ابن بشر :

« حكي أن الشيخ محمداً وقف يومـاً عند الحجرة النبوية ، عند أناس يدعون ويستغيثون عند حجرة النبي (ص) .

فرآه محمد حياة ، فأتى إليه ، فقال الشيخ : ما تقول في هؤلاء ؟

قال : « إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون » .

... فشبّه عمل العاكفين على الضريح الطاهر بعمل عبدة الأوثان .

في البصرة والاحساء

يقول ابن بشر إن الشيخ قرأ ، في البصرة ، عند عالم جليل ، اسمه : « محمد المجموعي » ، في مدرسة له ، وكان المجموعي يستحسن ما يقوله له الشيخ في التوحيد ، فقرّره له ، وانتفع به ، وكان أولاد المجموعي أحسن أهـــل بلدهم صلاحاً ومعرفة بالتوحيد ، ببركة اجتماع الشيخ بوالدهم .

ولكن رؤساء البصرة هالهم ما ينكره الشيخ من معتقداتهم وعاداتهم ، فتجمعوا عليه وآذوه أذى شديداً وأخرجوه من البصرة ، في وقت الهجيرة ، « فلمـــا خرج الشيخ من البصرة ، وتوسط في الدرب فيما بينهم وبين بلد الزبير ، أدركه العطش وأشرف على الهلاك ، وكان ماشياً على رجليه ، وحده ، فوافاه صاحب حمار مكاري يقال له « أبو حميدان » ، من أهل الزبير ، فرأى عليه الهيبة والوقار وهو مشرف على الهلاك ، فسقاه وحمله على حماره حتى وصل الى الزبير .

ثم إن الشيخ أراد أن يصل الشام ، فضاعت نفقته التي معه ، فانثنى عزمه عن المسير إليه ، لما أراد الله سبحانه ، الذي يعلم السر وأخفى ، أن يمضي أمره ويعلي كلمته ، ويجتمع أهل نجد بعد تفرقها على إمام واحد ، ويزيل عنها شعائر الكفر والبدع ، فخرج من تلك الديار وقصد الأحساء ، فلمـــا وصل اليه نزل على الشيخ عبد الله بن محمد عبد اللطيف الشافعي الأحسائي ، ثم انه خرج من الأحساء وقصد بلد حريملاء » .

رواية "لمع الشهاب"(٧)
عن رحلة الشيخ محمد بن عبد الوهاب(٨)

قال مؤلف اللمع :

« أنبأنا من يوثق به، عن بعض المعاصرين للشيخ النجدي محمد بن عبد الوهاب، أنه طلب العلم وهو حدث ، وكان يبالغ في الطلب ، ذكي الفهم ، حريصاً على التعلم ، وكان يقرأ على يد رجل اسمه « الشيخ عبد الرحمن بن أحمد » ، من أهل بريدة ، هاجر من بلده إليها ولازم صحبته ست عشرة سنة حتى أدرك منه علوم الآلات من العربية كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع، وقرأ عليه الحديث النبوي، منه كتابا البخاري ومسلم ومسند أحمد بن حنبل ، ثم بعد ذلك اتبع الشيخ « حسان التميمي » في بلاد القصيم ، وتتلمذ على يده في علم الفقه والتفسير سبع سنين حتى صار ماهراً يرجع اليه في الفتوى ، فلما بلغ عمره سبعاً وثلاثين سنة خرج من أرض نجد قاصداً البصرة .

في البصرة

فحين دخل البصرة أخفى أمره بما هو فيه من العلم وتلبس بلباس العبادلة ، وجلس في مسجد محلة المجموعة ، وقيل إن بعض التجار من أهل نجد صادفوه فعرفوه فأنكرهم لما سألوه عن حاله ومنزله ، وكانوا يتحدثون فيه في مجالس أهل البصرة ويقولون :

« ها هنا شيخ من نجد ، كذا وكذا علمه وشهرته ، فطن ، لبيب ، لقيناه بالأمس فعرفناه ، وأنكرنا ، فتحذروا من أن يحدث في بلدكم شيئاً ! » وإنما قالوا

ذلك عداوةً له لأنه أخفى أمره عليهم فلم يستحسنوه ، فتجسس بعض الناس عنه فاطلعوا عليه وسألوه عن شأنه فلم يجبهم بشيء فرفعوا خبره إلى الحاكم وكان حينئذ « عمر آغا » ، متسلم البصرة ، فأرسل عقبه شروطاً « شرطة » ، فأتوه به وأخذ يتحدث معه ويبدي له محبة وإكراماً فرآه رجلاً فهيماً عاقلاً ذا فنون من العلم والأدب ، فنادمه أياماً وهيأ له سكناً ومؤنة ، ورغب كثير من أهل البصرة بصحبته وكان من جملتهم الشيخ « أنس » من كبار أعيان البصرة ، « فتحاسد » الخلق حينئذ من صحبته ، حتى قيل إنه من شدة الازدحام عليه يُنصب له كرسي فيجلس والجماعة تحدق به ، فيحدّث بالأحاديث الغريبة ويفسر بالتفاسير العجيبة ، وقد أقام على هذا أربع سنين ، فلما عزل عمر آغا عن البصرة وحكمها الجرجيس آغا ، عزل شهاب الدين الموصلي قاضي البصرة ، وجعل القاضي حسين « الإسلامبولي » مكانه ، وقد أنبيء القاضي حسين بخبر محمد بن عبد الوهاب وصيته ، فأرسل اليه : « إنني أريد زيارتك غداً » ! فقال : « حباً وكرامة ! » ، فحين أصبح الصباح ، ركب القاضي حسين مع تلاميذه وحشمه حتى أتوا الشيخ محمد بن عبد الوهاب فلما سمع بوصولهم إلى الباب ، قام « فالتقى » القاضي وعانقه وأجلسه في أعلى المجلس ، فقال القاضي حسين :

« أيها الشيخ ، بلغني أنك تحدث الناس بأحاديث لم تعهد في كتب العلماء وتفسر القرآن بوجوه لم ينزلها رب السماء ، أتريد أن تحدث أمراً في الدين أم اشتبهت عليك طريقة المسلمين ؟ فإن لم تمتنع عن تلك الشبهات الواهية وإلا فيهدر دمك ويهتك حرمك » .

فتعذر هو من القاضي وحلف بالله ما قال شيئاً مما نقل إليه ، وأخذ يظهر الإخلاص ويلتمس ، ويبدي العجز والإنكار ويقول : « رجل غريب طالب علم ، حلّ بأرضكم ، إن رفقتم به فمثلكم من يكرم الضيف ، وإن « أسأتموه » فلا ضرر ولا حيف » !

فلما سمع القاضي حسين منه هذه الكلمات أمنه ، وسار الى بيته .

فلم تمض ثلاثة أيام حتى أرسل « القاضي » إليه بأن « الصلاح في شأنك أيها الشيخ أن تنزل عندنا وتكون مدرساً بالعربية وغيرها من الشرعيات بحضرتنا ،

ولك على ذلك وظايف وافرة » ، فبادر ، مسرعاً ، الى إجابة القاضي ، فأقام عنده بدرس بعض المتردّدين إليه بالحكم الإلهي والشرعي ، وتضرع الى القاضي أن يعلمه شيئاً من علم الهيئة والهندسة ، لأن القاضي حسين كان مشتهراً بعلوم الرياضة ، لا سيا بهذين العلمين، فقرأ عليه شرح « أقليدس » ، شرح المأمون العباسي ، و كتابي المجسطي والجغميني في الهيئة، ولم يزل كذلك إلى أن مضى عامان،فخرج من البصرة مستخفياً، لم يعلم به أحد ، وسار الى بغداد ، فالتمس القاضي خبره، فلم يعثر عليه حتى جاء جمع من بغداد فنبأوه عن حاله وأنه بلغ بغداد ، فقال القاضي حسين : أعوذ بالله من شر هذا الرجل وما فيه من الرأي، كاد يهدم الشريعة ، لولا أن خاف على نفسه ، وستعلمون ما يكون منه بعد ذلك » .

الشيخ في بغداد

وأما هو – أي الشيخ محمد بن عبد الوهاب – فقد دخل بغداد ونزل مدرسة الوزير واشتغل بدرس علم الكلام على يد الشيخ عبد الرحيم الكردي الشافعي ، وقرأ عليه كتاب « صحايف الأعمال » و « مقاصد التفتازاني » .

حكى لنا رجل بغدادي أن محمد بن عبد الوهاب أقام في بغداد في المدرسة المعروفة بمدرسة الوزير سنتين ، لم يخرج منها الى سوق أو « شوارق » قط ، ثم إنه طلع يوماً من المدرسة بعد السنتين فسلك طريقاً لا يدري أين تمضي ، حيث أنه لا يعرف أحداً من بغداد ، فرأى هنالك جماعة من الناس يتخاصمون في ميراث بينهم ولم يعرفوا قسمته، فقال لهم : « أنا أدفع النزاع، وأبيّن الأوزاع . » ، فقبلوه حكماً ، فسألهم : كم أنتم من الورثة ؟ قالوا : أربعة رجال وخمس نسوة . قال : المال ، كم هو؟ فقالوا : كذا و كذا، مثلاً .. فقسم بينهم حسب القسمة الشرعية ، وكان هذا النزاع بينهم منذ أيام عديدة ، لم يرتضوا في فصله حكم أحد .

وكان بتلك المحلة مسجد جامع كبير ، وعليه وقف كثير ، فأشار اليهم أن يقيم عندهم ، ويصلي بهم الجمعة وبقية الفروض اليومية ، فاتفقوا على ذلك وأسكنوه

منزلا وتزوج منهم امرأة ذات مال وجمال ، فلبث عندهم ثلاث سنين ، فقيل ورث منها ألفي دينار .

الشيخ في كردستان :

وفي العام السادس من وصوله بغداد سار منها الى كردستان حتى دخلها ولم أدرِ أي مدينة أم أي قرية حل فيها ، إذ الراوي لم يعين لي اسمها وأنا ملتزم في هذه الأوراق أن لا أقول إلا ما سمعته وحققته ، فاستقرى ديار الأكراد ، بلداً بلداً ، وقرية قرية ، سنة بتمامها .

الشيخ في همدان :

فخرج يريد ايران حتى بلغ همدان فأقام بها سنتين يَدْرُسُ ويُدَرِّس ، ومن عجيب حاله أنه كان يغير اسمه في كل بلد ، قيل سمى نفسه في البصرة بعبد الله وفي بغداد بأحمد وفي الكرد بمحمد وفي همدان بيوسف .

الشيخ في اصفهان :

وهكذا لم يزل يتخذ التورية والابهام ، فسار من همدان الى أصفهان . وسكن المدرسة العباسية التي بناها شاه عباس الصفوي وكان ذلك آخر عهد الصفوية وأول سلطنة نادر شاه ، وطلب هناك علم الحكمة المشائية على يد ميرزاجان الاصفهاني المحشي على شرح التجريد فقرأ عنده شرح ملا علي القوشجي على التجريد ثم قرأ شرح المواقف للسيد شريف الجرجاني ثم قرأ حكمة العين فلم تمضِ أربع سنين إلا وقد كمل في علم الحكمة المشائية وشرع يدرس فيها، وهو مجهول الحال لا يعرف أهل أصفهان من أي الممالك والطوائف هو، وكانوا يقولون ما رأينا عربياً يستكمل في علم الحكمة غير هذا الرجل ، ثم انه أقام بعد ذلك بأصفهان ثلاث سنين يطلب فيها علم الاشراقية ومسالك التصوف واني سمعت بعضاً من أهل البصرة يقول

حدثنا رجل أعجمي أصفهاني عن محمد بن عبد الوهاب أنه بعد أن تمرن بالحكمة الاشراقية وعلم التصوف جلس في الخلوة واعتزل عن الناس ستة أشهر ثم مرّ يوماً بسوق من أسواق أصفهان وعليـه جبة خضراء ، ورأسه مكشوف . فاعترضه بعض من كان يعرفه قائلاً : لم صيّرت نفسك على هذه الحال ؟ فأجاب : كنت أعرف نفسي قبل لا غير ، والآن عرفت ربي ، فأردت أن أميّز بين الحالتين ، فكشفت رأسي !..

فتبعه جماعة يقتفون أثره، الى أن دخل منزله واستقر،فاستأذنوا بالدخول،فأذن لهم ، فقالوا : أيها الاستاذ المرشد والمعلم المنجد ، أرشدنا الى ما أنت فيه، فاننا من هذه الساعة قبلناك ، وفي هذا الوقت عرفناك » .

وكانوا عشرة أنفار ، فبـدأ يعلمهم التصوف وطريقه ، واستمر على الارشاد واستجذاب المريد سنة كاملة ، فهجس في نفسه بالحدس أنه إن عرف ببعض ما هو عليه يقتل ويصلب ، لأنه كان يقول لمريده : « ليس على الحق غيرنا » .

الشهخ في الري :

لكنه خرج من أصفهان ، قاصداً « الري » ، فمر بقرية من قراها وكان معه بعض الدراهم ، فقصد بيت أحد منها ليشتري له متاعاً حيث أن القرية لا سوق فيها فلما رآه صاحب البيت قال له ادخـل فدخل ، قال بم أتيت ؟ قال أشتري متاعاً ، فقال صاحب البيت قم ها هنا حتى آتيك بالمتاع ، فخرج صاحب البيت وسار الى كبير القرية شاكياً اليه ان هذا رجل عربي قد غصبني مالاً كذا وكذا في سنة حجي في أرض نجد والآن قدّر عليه فوقع في بلدتنا وهو الساعة عندي في بيتي جاء ليشتري متاعاً ، فقال رئيس القرية لخادمه احضره عندي فأحضره فقال له : هكذا فعلكم أيها العرب الأشرار ، تتعرضون من يقدم بلادكم وتغصبونـه حقه وماله، والله لا تبرح حتى توفي كل ما أخذته من هذا الرجل ، خذوه فغلوه .

فحين سمع محمد بن عبد الوهاب ذلك قال لرئيس القرية: أبلدتك هذه قصدها أحد قبلي أم هذا أول الأمر ؟

وانما قال له ذلك ليطول معه الكلام ، فيبين له الحال لعله يرق اليه ، ويعدل ..

فأجابه الرئيس: هذا كلام لا نسمعه ولا نجيب عنه، أما المال فلا بد من أدائه.

فاتوا بالخشب فشدّوه وضربوه .

ولما عرف محمد بن عبد الوهاب أنه لا يقبل منه سؤال ولا يسمع منه مقال ، وأنه ملزوم ومظلوم لا محالة، قال: سله كم ذا يطالبني به؟ قال: كذا و كذا، واذا هو مبلغ خطير .

قال الراوي: حاصل الأمر انهم أخذوا منه كل ما عنده من الدراهم والاسباب، غير الكتب ، حيث لا غرض لهم بها .

الشيخ في قم

فخرج من تلك القرية هو ومريده، وهو رجل بغدادي اسمه «علي القزاز»، فبلغ « قم » وبقي فيها شهراً كاملًا لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد، وكان محتاجاً قليل الحيلة قد باع من كتبه لمؤونته .

الشيخ في بلاد الترك

فخرج منها ناجياً نحو الروم، فاتفق مع ركب من الروم أهل أبي لباس فاصطحبوه معهم وكانوا يسيرون الفيافي وهو يحدثهم ببعض الأحاديث العربية ويفسرها لهم بلغتهم التركية، فاعجبهم صنيعه وفصاحته عربية وتركية، فلما بلغ معهم أبا لباس أكرموه وجمعوا له مالاً جزيلاً حيث متعوه وقاموا بجميع ما له من الواجب ، ومشى على طريقته من مذهب الفقيه المجتهد أحمد بن حنبل جمع كبير من أهل أبي لباس ، ولم يحدث هذا المذهب في أبي لباس قبل مجيئه ، بل كانوا على مذهب أبي حنيفة كما هو المشهور في بلاد الروم .

الشيخ في حلب ودمشق والقدس

ثم سار من أبي لباس الى حلب فأقام فيها ستة أشهر يدرس بالعربية فسئل عن

علم الحكمة ؟ قال : لا أدريها ...

وهذا من عجائب شأنه يظهر الامر أحياناً ، وتارة يخفيه ، ثم ذهب من حلب يستتبع قرية قرية الى أن دخل دمشق الشام فلبث فيها سنة ، ولم يذكر لي مـا جرى له فيها ، ثم مضى منها الى قدس الخليل ، فبقي هناك شهرين .

الشيخ في مصر

قال بعض من حدثنا عن خبر محمد بن عبد الوهاب قال خرج من زيارة « بيت المقدس » وعمد الى « مصر » فأقام فيها سنتين وأياماً قلائل وكان مسكنه الجامع الازهر في المدينة القاهرة وتعلم هناك الاسطرلاب وعلم الاعداد على يـد الشيخ محمد الملقب بزين الدين ، المكنى بأبي عبدالله المغربي .

عودة الشيخ

ثم انه انحدر الى السويس وركب السفينة فأتى ينبع فنزل هناك ثم أتى المدينة المنورة فلبث فيها أياماً قليلة فصادف بذلك أيام الحج فحج بيت الله الحرام قيل انه اجتمع مع الشيخ عبد الغني الشافعي الذي كان حينئذ مفتي مكة شرفها الله تعالى فاعترف الشيخ عبد الغني بفضله وكماله وكان ذلك أيام دولة الشريف سرور ، فطلب منه الشريف سرور وأعيان مكة البقاء هناك فأبى ، فخرج من مكة يريد نجداً فلما وصل « بريدة » عرفوه فأكرموه غاية الاكرام واستخبروه عن حاله وسياحته هذه المدة ، فأخبر بالأمر كله .

وسار منها الى « العيينة » ، فهجم عليه جمع يقبلون يـده ، فمنعهم ، وكانوا يقولون : مولانا وملاذنا ، على ما هو عادة الناس في عرفهم مـع العلماء والأكابر ، فقال لهم : « لا أرى أحداً يستحق هذا اللقب إلا الله تعالى » . فأقام بالعيينة يوماً أو بعض يوم ، ثم سار الى العارض من نجد ، لأن هناك مولده وأصل مسكنه .

نقد رواية "اللمع"

أخذت عن «اللمع» : دائرة المعارف الإسلامية وطائفة كبيرة من المستشرقين، ثم نقل عن هؤلاء أحمد أمين والعقاد وغيرهما من الكتاب العرب .

لذلك لا نستطيع تجاهل اللمع، لعظم أثره وشيوع أخباره في الكتب الحديثة، ولعل الباحثين في تاريخ الشيخ إنما أقبلوا على كتاب اللمع ، لأنهم وجدوا فيه أجوبة لكثير من الأسئلة التي لا يجدون لها جواباً في ابن غنام ولا في ابن بشر !

ان صاحب اللمع ، لا يخفي عداوته لمحمد بن عبد الوهاب وحركته ، ولكنه يذكر كثيراً من الحقائق ، ويخلطها بشيء من الكذب .. وقد يصعب علينا تمييز الخبيث من الطيب ، ولكننا لا نستطيع طرح هذا الكتاب ، لمجرد احتوائه على بعض الأكاذيب والافتراءات ..

البلدان التي زارها الشيخ :

تتلخص « مراحل » رحلة الشيخ ، في رواية اللمع ، بما يأتي :

١ ـ البصرة ، وأقام فيها ست سنوات .

٢ ـ بغداد ، وأقام فيها خمس سنوات وتزوج فيها بامرأة غنية .

٣ ـ بلاد العجم والكرد وما اليها .. أقام في همدان سنتين ، وفي أصفهان ثلاث سنوات ودرس خلالها الحكمة المشائية والفلسفة الاشراقية ومسالك التصوف .

ثم انتقل الى « الري » فبلدة « قم » وأقام فيها مدة يسيرة .
٤ — بلاد الترك : أقام في بلدة « أبي لباس » التركية مدة ..
٥ — في حلب ودمشق والقدس : وأقام ستة أشهر في حلب وسنة في دمشق ، وشهرين في القدس .
٦ — في مصر : سافر الى مصر ، فأقام في الجامع الأزهر سنتين ..
٧ — ثم عاد بالبحر الى ينبع فالمدينة .. ثم حج .. ورجع الى بريدة، فالعيينة

مقارنة بين اللمع ومؤرخي نجد

رأينا ، قبلُ ، أن مؤرخي نجد ، ابن غنام وابن بشر ، يقصران رحلة الشيخ على « البصرة » ، ويذكران أنه زار « الأحساء » أيضاً ، كما زار المدينة ، بعد أدائه فريضة الحج ، وبمقارنة ما كتباه برواية اللمع ، يتضح لنا أن اللمع يضيف الى روايتهما مدناً كثيرة لم يشيرا إليها اطلاقاً ، وهي :
بغداد، همدان، أصفهان، الرى، قم، أبو لياس، حلب، دمشق، القدس، مصر .
فما هو الصحيح ، وما هو الباطل من هذه الروايات ؟

هل زار الشيخ بغداد

أما بغداد ، فقد ترجح لدينا أن الشيخ زارها، لا برواية اللمع ، ولكننا وجدنا ذلك في مصدر عربي آخر ، وهو كتاب : « عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد » ، ألفه ابراهيم الحيدري ..
يذكر مؤلف الكتاب أن والده أخبره أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قدم بغداد ، وأنه أخذ العلم فيها عن جده « أي جد والد المؤلف » العالم المشهور « صبغة الله الحيدري » ثم يضيف المؤلف الى ذلك أن جده « أسعد الحيدري » لما عاد من مكة ، على طريق الدرعية ، اجتمع به الشيخ واحترمه غاية الاحترام ، كما عزه الأمير سعود وأكرمه ، وجلس عندهما في الدرعية ثلاثة أشهر .
فاذا صدقنا كلام الحيدري لم تكن لنا مندوحة عن التسليم بأن الشيخ أقام في بغداد ، كما يقول صاحب اللمع .

وهنا يرد على الخاطر سؤال ، وهو :

هل اشتغل الشيخ ، خلال إقامته في العراق ، بشيء غير الدرس والتدريس ؟

يقول « هامتنغ » إن الشيخ تعاطى التجارة .

ولم نجد مصدراً آخر يذكر ذلك .

فان صح زواج الشيخ بامرأة غنية في بغداد ، فلا يستبعد أنه اتجر بمالها ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال السيدة خديجة ،ولكننا لا نملك من المراجع حتى الآن ما يساعدنا على تأييد هذا الرأي تأييداً قاطعاً ، وقد نقل لنا مؤلف (اللمع) نفسه حديثاً يدل على زهد الشيخ بالتجارة ! ...

هل سافر الشيخ الى الشام ؟

كانت الشام مركزاً من مراكز الفقه الحنبلي المعدودة في العالم الاسلامي ، وهي وإن كانت أقل من القاهرة سكاناً وعمراناً وعلماء ، وليس فيها مدرسة تسامي « الأزهر » ، لكنها كانت أقرب إلى نجد ، وكان فيها عدد من النجديين غير قليل ، قصدوها للاستيطان أو التجارة أو العلم .

وأمر آخر يحبب الشام الى قلب الشيخ هو أنها موطن ابن تيمية وابن القيم والحافظ الذهبي ، وابن كثير وابن قدامة وغيرهم من الأعلام الذين بدأ يقرأ لهم ويحبهم ويعجب بهم .

ويؤكد أكثر المؤلفين ، من غربيين وعرب ، ان الشيخ زار دمشق ، نسمي منهم : كورانسيز ، بريدجس ، ميشو ، المؤرخ التركي جودت باشا ، خير الدين الزركلي في « قاموس الأعلام » ، وهناك مؤلف افرنسي محدث يزعم ان الشيخ خرج من دمشق بفكرة عظيمة ، هي إعادة الخلافة الأموية وتحرير كل من الشام والعراق من سيطرة العثمانيين !

قد يقال ان رواية بعض المؤلفين لا يكترث لها ، لشبهة نقلهم ما كتبوه عن « اللمع » ، ولكن « كورانسيز » و « جودت باشا » لم يطلعا على اللمع ، ورجعا إلى مصادر أخرى .

ومما يلفت النظر أن أقوال ابن بشر التي يذكر فيها عدول الشيخ عن السفر الى دمشق تناقض أقوال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن !

يقول ابن بشر ان الشيخ أراد بعد خروجه من البصرة السفر الى دمشق ، ولكن ضياع نفقته حال بينه وبين ذلك ، فعاد الى نجد ماراً بالزبير فالأحساء . أما الشيخ عبد اللطيف فيقول : « ان الشيخ كان قد عزم وهو بمكة » ، أن يصل الشام مع الحاج ، فعاقه عائق فقدم المدينة وأقام بها ، ثم ان العليم الحكيم رده الى نجد !

والروايتان ، كما ترى ، غير متطابقتين ، فواحدة تقول انه قصد الشام من البصرة ، وواحدة تجعل هذا القصد من مكة .

نعم ، نستطيع التوفيق بين الروايتين بقولنا إن الشيخ عزم على السفر الى دمشق مرتين ، ولكن ذلك لا يحلّ لنا المسألة، وهي : هل رجع الشيخ بعد ذلك، أو بين ذلك ، الى دمشق ؟

لقد تكلم الشيخ في رسائله غير مرة عن دمشق أو الشام -كما يسمونها، باسم الاقليم كله - وخصوصاً في معرض الرد على « المويس » والسخر منه ، لكثرة تبجحه بأنه تعلم في دمشق ، ومما قاله الشيخ في رسالته الى ابن سحيم :

« .. وهذا - أي المويس - صنف .. ما علمت ، وأرسله الى البلدان : اعرفوني ، اعرفوني تراى جاي من الشام ..

.. فيا عجباً من رجل يدعي العلم وجاء من الشام يحمل كتباً ، فلما تكلم اذا به لا يعرف الاسلام من الكفر ... لكنه هو آتٍ من الشام ، وهم يعبدون « ابن عربي » ، جاعلين على قبره صنما ، ولست أعني أهل الشام كلهم، حاشا وكلا، بل لا تزال طائفة على الحق » .

ان كلام الشيخ عن ابن عربي وأهل الشام لا يستدل منه على أنه كان في الشام ، فما اكثر ما يتكلم الانسان عن بلدان لم يرها ، وانما قرأ أوصافها وأخبارها في الكتب أو سمعها ممن شهدوها ، ولذلك لا نستطيع الاستدلال على زيارة الشيخ لدمشق ، بكلامه عنها ..

بزعم « بالغريف » ان الشيخ أقام في دمشق سنوات ، وان عقيدة التوحيد نشأت عنده أثناء ملازمته لعلماء الحنابلة هناك ، فقد أحب مثلهم بساطة الاسلام الأولى ، وكره النقشبندية و « السفسطائيين » و « الفقراء » - أعني المتصوفة - وصمم على محاربة البدع التي جاء بها هؤلاء وغيرهم !

أما ابن غنام فلا يذكر اسم دمشق بين البلدان التي زارها الشيخ، ولكن ذلك لا يقوم حجة كافية على عدم زيارته إياها ما دام هناك من يقول إنه زارها، لأن القاعدة أن قول من يعلم حجة على من لا يعلم ، يضاف الى ذلك أن ابن غنام يقول إن الشيخ رحل الى « كثير » من الأقطار ، فلا يعقل أن تقتصر رحلته على البصرة .. أما الأحساء فكانت مرحلة في طريقه الى نجد ، وأما مكة والمدينة ، فكان قصدهما للحج والزيارة ، وان لقي في المدينة أساتذة أجلاء .

وبعد .. سواء أزار الشيخ دمشق أم لم يزرها ، فان دمشق ، بعلمائها الأعلام، كابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن عبد الهادي وغيرهم هي مدرسة الشيخ الحقيقية .

هل سافر الشيخ الى فارس ودرس فيها الفلسفة ؟

يقول أحمد أمين ، في كتابه « زعماء الاصلاح في العصر الحديث » عن رحلة الشيخ في طلب العلم :

« سافر إلى المدينة ليتم تعلمه ، ثم طوف في كثير من بلاد العالم الاسلامي ، فأقام نحو أربع سنين في البصرة ، وخمس سنين في بغداد وسنة في كردستان ، وسنتين في همدان ، ثم رحل إلى اصفهان ، ودرس هناك فلسفة الاشراق والتصوف ثم رحل الى « قم » ثم عاد الى بلده . »

لقد اشتهر أحمد أمين ، رحمه الله ، باعجابه بما يكتب المستشرقون ، وقد كتب ما كتبه عن رحلات الشيخ في صيغة الجزم ، من غير أن يشير إلى المصدر الذي أخذ عنه ، لاعتقاده بأن أقوال المستشرقين حقائق تاريخية أو « وقائع » لا يرقى اليها الشك ، مع أنه انما ينقلها عن المستشرق « هوتسما » ، وهذا المستشرق نفسه

يقول بكل صراحة ان هذه الأقوال هي من رواية صاحب « اللمع » !

ويظهر أن الدكتور جمال الدين الشيال أخذ ، هو أيضاً ، أخبار رحلة الشيخ عن « هوتسما » ، أو عن أحمد أمين ، لأن عباراته هي نفس عبارات هذا الأخير .

أما صلاح العقاد ، فينكر أقوال اللمع ، فيما يتصل باقامة الشيخ في بلاد العجم ودرسه فيها الفلسفة والتصوف لسببين :

السبب الأول – جهل الشيخ التام باللغة الفارسية .

السبب الثاني – أننا لا نجد في كتابات الشيخ أثراً لهذه الدراسات المزعومة في الفلسفة والتصوف !

وهذا رأينا أيضاً !

أما القول بأن الشيخ كانت له « شخصية » ثانية ... اختفت تماماً ، كما يزعم صاحب اللمع ، فنوع من الهذيان ، تورط فيه صاحب اللمع وورط فيه غيره !

في الاحساء :

زار الشيخ الأحساء ، وأقام فيها ، ولا ندري كم مرة زارها .

فان رسالته الى الشيخ محمد بن عبدالله بن عبد اللطيف الاحسائي يعاتبه فيها على تظاهره عليه مع جماعة من خصومه ، تدلنا على أنه كان اجتمع به قبل عشر سنوات .

ونرجح ان هذه الرسالة كتبت من العيينة قبل عام « ١١٥٧ » ، وبذلك يكون هذا الاجتماع قد تمّ عام « ١١٤٧ » أو قريباً من ذلك ، وليس مستبعداً أن يكون الشيخ قد زار الهفوف « قاعدة الاحساء » مرتين ، أو ثلاثاً ، آخرها عند عودته إلى الحجاز ونجد .

هل كانت الأحساء المرحلة الأخيرة في طريق عودة الشيخ من البصرة إلى نجد؟ ذلك ما يقوله ابن بشر . أما الشيخ عبد اللطيف فيقول « في الرسالة الثامنة والستين » ان الشيخ سافر من البصرة إلى الأحساء ، فمكة ، فالمدينة ، ثم جاء حريملاء في نجد .

هل سافر الشيخ الى اليمن ؟

لم يشر اللمع إلى سفر الشيخ إلى اليمن ، ولكن المؤرخ الفرنسي « ميشو » يزعم ان الشيخ طلب العلم في صنعاء .

وهذا الكلام يبدو مستغرباً ، ولا نجد له ظلّا في ابن غنام ولا في ابن بشر ، وما كنا لنقيم له وزناً ، لولا أننا وجدنا في كتاب « أثر الدعوة الوهابية » للفقي هذه الفقرة :

« انتقل الشيخ إلى الدرعية في خلال سنة ١١٥٨ ، وكان له من العمر آنذاك اثنتان وأربعون سنة ، قضاها كلها في طلب العلم والرحلات ما بين نجد والحجاز والبصرة واليمن » .

ومما يضعف رواية الفقي عندنا أنه لا يؤيدها بذكر المصادر .

سفر الشيخ الى مصر ...

أما ادعاء اللمع أن الشيخ سافر إلى مصر ودرس في الأزهر ، فخبر مختلق ولم يأخذ به أحد .

ضعف تواريخ ... اللمع

ومما يكشف كذب صاحب اللمع ويضعف قيمة رواياته : حساب التواريخ.. فقد زعم أن الشيخ خرج من نجد ، وله من العمر سبع وثلاثون سنة ، وأعاده إلى نجد بعد عشرين سنة أو أكثر ، فكان عمره في زعمه سبعاً وخمسين سنة ، ونحن نعرف أن الشيخ ولد عام ١١١٥ فتكون سنة عودته إلى نجد ، في رواية اللمع ، سنة «١١٧٢»... أي بعد انقضاء خمس عشرة سنة على اقامته الثابتة في الدرعية ... وهذا ... وراء العقل .

شيوخ محمد بن عبد الوهاب

لم يذكر لنا ابن غنـــام من اسماء الشيوخ الذين قرأ عليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب الا :

١ ـ والده : عبد الوهاب بن سليمان .

٢ ـ الشيخ عبد الله بن ابراهيم .

ويضيف اليها ابن بشر :

٣ ـ الشيخ محمد حياة السندي ، في المدينة .

٤ ـ الشيخ محمد المجموعي ، في البصرة .

أما صاحب اللمع ، فيذكر لنا أن الشيخ درس في نجد على الشيخ « عبد الرحمن ابن أحمـــد » والشيخ « حسان التميمي » ، ودرس في البصرة على القاضي الشيخ حسين علوم الهيئة والهندسة ، ودرس في بغداد عام الكلام على الشيخ « عبد الرحيم الكردي » ، ودرس في أصفهان الحكمة المشائية على « ميرزاجان الأصفهاني » ، ودرس بمصر في الجامع الأزهر على أبي عبد الله المغربي ، واسمه محمد زين الدين .

وأكبر الظن ان كل هذه الأسماء لا أصل له ، والله أعلم .

اسماء جديرة بالبحث

وهناك مؤلفون أوردوا أسماء طائفة من أساتذة الشيخ في المدينة وغيرهـا ،

نراها جديرة بالعناية ، وقابلة للتصديق .

فقد ذكر ابن دحلان ان الشيخ قرأ في المدينة على الشيخ (سليمان الكردي) ، وان الشيخ سليمان هذا كتب الى محمد بن عبد الوهاب ، بعـــد عودته الى نجد ، ينصحه بعدم التسرع في تكفير الناس .

ويذكر الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار ، في كتابه : « سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب » ان الشيخ درس على : اسماعيل العجلوني ، وعلي الداغستاني ، ومحمد العفالق ، وعبد الله العفالق .

ونعترف بأننا لم نبذل جهداً كافياً في استقصاء أسماء أساتذة الشيخ .

ونستطيع القول ان مدرسة الشيخ ، بعد القرآن والحديث ، هي كتب ابن تيمية وتلامذته . فالشيخ قرأ ، في الكتب ، وأكثر ما قرأ : على .. نفسه .

متى عرف الشيخ التّوحيد وأظهره ؟

يرى بعضهم أن الشيخ عرف التوحيد وأظهره منذ طفولته أو أول شبابه ، وذلك قبل خروجه من نجد حاجاً ثم طالباً للعلم .

ومن القائلين بهذا الرأي الأستاذ عبد الغفور العطار ، فقد ذكر في كتابه : « سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب » ، ان الشيخ لم يستطع إظهار دعوته في العيينة بسبب ضعفه وقلة أنصاره ، فاكتفى « باعلانها أمام قرنائه العلماء .. غير ان بعضهم قاومه أشد مقاومة .. فنشأ العداء بين فريق من العيينة وبين الأسرة الوهابية ، حتى اضطر رئيسها .. الى الهجرة بأتباعها الى بلدة حريملاء في سنة ١١٣٩ .

.. ولكن محمداً كان شاباً .. لذا لم يبرح محمد « العيينة » وبقي فيها ينافح عن آرائه ويدعو الى مبادئه .. وبعيد مدة تبعه بعض الناس .. فزاد ذلك العلماء المغرضين والرؤساء غيظاً وحنقاً ، وأخذوا يقاومونه بالقوة ويركبونه بالسخرية .. فرأى بثاقب فكره أن يهدىء مراجل غضبهم بابتعاده عنهم .. » ، فرحل .. الى مكة حاجاً .

والحق ان العطار لا ينفرد بهذا الرأي ، وربما نجد لرأ ، شيئاً من التأييد في ابن بشر نفسه الذي يزعم هو أيضاً ان الشيخ عرف التوحيد منذ صغره ، ولما تحقق «معرفة التوحيد ومعرفة نواقضه ، وما كان وقع فيه كثير من الناس من هذه البدع المضلة ، صار ينكر هذه الأشياء ، واستحسن الناس ما يقول ، لكن لم ينهوا

عما فعل الجاهلون ولم يزيلوا ما أحدث المبتدعون ، فلما رأى انه لا يغني القول ، ولم يتلق الرؤساء الحق بالقبول ، تجهز من بلد « العيينة » الى حج بيت الله الحرام » ..

اما ابن غنام ، مؤرخ الشيخ ، فلا يذكر شيئاً من ذلك كله ..

وفي اعتقادنا ان الشيخ لم يدع ، قبل خروجه من نجد ، الى التوحيد ، ولم يقع أي عداء بسببه ، خلال الفترة التي سبقت خروجه من نجد ، بين أهل العيينة وبين الأسرة الوهابية ، والشيخ لم يبق في العيينة بعد هجرة أبيه منها وإنما غادرها قبل أبيه ، مرتين : غادرها أولاً الى مكة حاجاً والى المدينة زائراً ، ثم عاد اليها، ثم غادرها مرة ثانية ، الى البصرة ، وكان ذلك قبل هجرة أبيه منها الى حريملاء ، لا بعده .

كل هذا ثابت ، نجده في ابن غنام وفي ابن بشر نفسه .

ان دعوة الشيخ الى التوحيد ، في نجد، انما بدأت بعد عودة الشيخ من رحلته .

ويقول لنا ابن غنام ان الشيخ دعا الى التوحيد في « البصرة » ، فقال : « ان الدعوة كلها لله ، يكفر من صرف شيئاً الى سواه.. وإذا ذكر أحد بمجلسه شارات الطواغيت أو الصالحين ... نهاه عن ذلك وزجره » .

ويقول صاحب « اللمع » ان الشيخ شوهد في بغداد ، كاشفاً رأسه ، على حال غريبة ، فلما سئل عن سبب ذلك ، أجاب : الآن عرفت ربي .

يعني بذلك صاحب اللمع ، كما يفهم من بقية كلامه ، ان الشيخ كشف له في ذلك الوقت عن حقيقة التوحيد .

ولكننا لا نستطيع الاطمئنان الى رواية اللمع ، المحشوة بالافتراءات .

وعندنا ان الكلمة الفصل في هذا الأمر ، هي للشيخ نفسه . قال الشيخ ، في رسالة الى أهل الرياض ومنفوحة :

« .. وأنا أخبركم عن نفسي ، والله الذي لا إله إلا هو ، لقد طلبت العلم واعتقد كل من عرفني أن لي معرفة ، وأنا ذلك الوقت لا أعرف معنى « لا إله إلا الله » ، ولا دين الاسلام ، قبل هذا الخير الذي منّ الله به ، وكذلك مشايخي ما منهم رجل عرف ذلك ، فمن زعم من علماء « العارض » انه عرف معنى « لا إله

إلا الله » ، أو عرف معنى الاسلام قبل هذا الوقت ، أو زعم عن مشايخه ان أحداً عرف ذلك ، فقد كذب وافترى ومدح نفسه بما ليس فيه » .

فهل بعد هذا النص قول لقائل ؟

لقد ردّ ابن سحيم على أقوال الشيخ ، بكتاب نسب فيه الى الشيخ أموراً مفتراة ، ثم تساءل : من أين جاء الشيخ هذا العلم ، ما دام مشايخه لا يعرفونه ، هل هبط عليه بوحي أم رآه في الرؤيا ؟

والردّ على ابن سحيم سهل ميسور ، فقد أشرق معنى التوحيد في نفس الشيخ بعد تأمله في آيات القرآن وتدبره أسرار الأحاديث وقراءته كتب ابن تيمية وتلامذته ، ومشاهدته باشمئزاز أدران البدع والشركيات ، فشرح الله صدره للتوحيد ..

ان لهجة الشيخ قد تبدو عنيفة ، وقد يرى فيها بعضهم علواً واستكباراً ، ولكن الشيخ صادق في قوله ، ما أراد بما قاله إلا الدفاع عن نفسه أمام خصوم لؤماء ، كان ينبغي لهم أن يقوموا مثله بالدعوة الى الدين ، بعد ان استبان لهم وجه الحق ، فلم يفعلوا ، بل راحوا يجرحون ويفترون ويسبون ..

« أقلوا عليهم ، لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا »

الفصل الثالث

عودة الشيخ الى نجد

متى عاد الشيخ الى نجد ؟

من الأمور المؤسفة أن ابن غنام وابن بشر لا يحددان لنا سنة عودة الشيخ من رحلته الطويلة الى وطنه نجد .

وقد جاء في الكتاب الذي أرسله قضاة مكة ومفاتيها وعلماؤها الى السلطان سليم ان مبدأ ظهور الشيخ كان في عام ١١٤٣ هـ.

ويعتبر المؤرخ التركي جودت باشا هذا العام(١١٤٣)عام عودة الشيخ الى نجد .

ويقول أحمد بن زيني دحلان ان مبدأ ظهور الشيخ كان في عام ١١٤٣ ومبدأ انتشار دعوته كان في عام ١١٥٠ .

ويذهب كل من عباس محمود العقاد وصلاح العقاد والدكتور الشيال الى ان عودة الشيخ الى نجد كانت حوالي عام ١١٥٠ ، لأنه غاب عن نجد نحو عشرين سنة ، وكان خروجه من نجد سنة ١١٣٠ تقريباً ، بعد قليل من زواجه وحجه .

ان عام ١١٤٣ الذي اعتبر مبدأ ظهور الشيخ لا يعني حتماً ظهوره في نجد ، فربما كان يعني إظهاره لدعوة التوحيد ، وذلك قد تم فعلاً في البصرة قبل عودته

الى نجد .

ونحن نميل الى حل وسط وهو ان تاريخ العودة يقع بين عام ١١٤٣ وعـــام ١١٥٠ . لأن الشيخ بقي في العيينة حتى عـام ١١٥٧ ، وهو يقول في رسالة من العيينة إلى عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف إنه كان اجتمع به في الأحساء قبل ذلك بعشر سنوات ، أي في عام ١١٤٧ أو قبل ذلك .[1]

في حريملاء

عاد الشيخ من رحلته الطويلة في طلب العلم ، والتعليم ، والدعوة ، إلى وطنه، نجد ، ولكنه لم يعد إلى « العيينة » ، مسقط رأسه ومسرح طفولته ومدرستـــه الأولى ، وإنما عاد إلى « حريملاء » ، لأن أمير العيينة الجديد عزل أباه عبد الوهاب عن قضاء البلدة فهاجر منها بأسرته وانتقل إلى حريملاء وتولى القضاء فيها .

كان يتقاسم الحكم في حريملاء يومئذ أميران ، يقيم كل واحد منهما مع قبيلته في شطر من البلد ، وما ندري في أي شطر كان منزل عبد الوهاب ، ولكننا نعلم أنه تولى القضاء في حريملاء على كبر سنه، ولعله كان قاضياً لأحد الأميرين دون الآخر !

وقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب أمام أبيه ، يقرر له عقيدة التوحيد ، ويعلمه من معانيها ما جهله .

ويقول « جان ربون » إن عبد الوهاب اقتنع بدعوة ابنه ، وقبلها ، ولكنه كان يعتنقها في الخفاء ، ولا يجهر بها إلا أمـــام قلة من الأصحاب ، يثق بمروءتهم وكتمانهم للسر .

ويظهر أن عبد الوهاب ترك ابنه ، أول الأمر ، يقيم حلقات التدريس ، ويبين للناس ما هم عليه من البدع والخرافات ، ولكنه خشي عواقب ذلك ، ولعله كان يريد لابنه أن يخلفه في قضاء البلدة ، أو أن يكون قاضياً مثله في بـــلدة أخرى ،

---

١ - ورد في تاريخ ابن غنام المطبوع ان الشيخ رأى عبد الله الأحسائي قبل عشرين سنة ، ولكن النسخة الخطية المصححة ذكر فيها ان ذلك كان قبل عشر سنوات .

فنصح له بالاعتدال ، والكف عن الإنكار على الناس ، فلم يسع الشيخ مخالفة أبيه ، وهو يرى ضعفه و كبر سنه ، فاعتدل ، بل اعتزل... ويقول «مانجان» إن الشيخ تزوج خلال هذه الفترة ، وبقي في شبه عزلة مدة سنتين ، حتى توفي عبد الوهاب سنة ١١٥٣ هـ.

الشيخ يعلن دعوته .. ثم يهجر حريملاء

قال ابن بشر :

« جلس الشيخ عند أبيه يقرأ عليه وينكر ما يفعل الجهال من البدع والشرك في الأقوال والأفعال وكثر منه الإنكار لذلك ولجميع المحظورات حتى وقع بينه وبين أبيه كلام ، وكذلك وقع بينه وبين الناس في البلد ، فأقام على ذلك مدة سنتين حتى توفي أبوه عبد الوهاب في سنة ١١٥٣ .

ثم أعلن بالدعوة والإنكار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وتبعه ناس من أهل البلد ومالوا معه واشتهروا بذلك .

وكان رؤساء أهل حريملاء قبيلتين ، أصلهما قبيلة واحدة وهم رؤساؤها ، وكل منهم يدعي القول له ، وليس للأخرى على الثانية قول ولا للبلد رئيس يزع الجميع ، وكان في البلد عبيد لإحدى القبيلتين يقال لهم « الحميان » ، كثيرُ تعديهم وفسقهم ، فأراد الشيخ أن يُمنعوا عن الفساد وينفذ فيهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهمّ العبيدُ أن يفتكوا بالشيخ ويقتلوه بالليل سراً ، فلما تسوروا عليه الجدار علم بهم الناس فصاحوا بهم فهربوا فانتقل الشيخ بعدها الى العيينة . »

بين الشيخ وأبيه

لا يذكر « ابن غنام » شيئاً عن قصة الخلاف الذي قام بين الشيخ وبين أبيه عبد الوهاب ، هذا الخلاف الذي أشار إليه فيلبي بقوله :

« لقد قيل إن الوالد عمد في كثير من المرات إلى حد جماح طموح ذلك الشاب الذي كانت حماسته للعمل في سبيل الله قمينة بان تفوق مداركه الخاصة ، وفي مجتمع

غير مستعد لقبول فكرة ترك الحياة السهلة في ذلك العصر »

ويقول « الفقي » :

« كان والده كشيوخ بلاده إنما يحفظ علماً ما في كتب الفقه التي ألفها المتأخرون .

فسمع من ابنه علماً جديداً وكلاماً لا عهد له بمثله ، فخشي على ولده أن يرمى عند العامة بالكفر وأن يوصف من الدهماء بالمروق من الدين ، ولعله نصح لولده حينئذٍ أن يعدل عن ذلك الطريق فلم يقبل الشيخ نصح والده » .

أما الشيخ عبد اللطيف ، فيكتفي بالقول إن الشيخ « قدم على أبيه وصنوه وأهله ببلد حريملا فبادأهم بالدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك والبراءة منه ومن أهله ، وبين لهم الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة وكلام السلف ، فقبل منهم من قبل – وهم الأقلون – وأما الملأ والكبراء والظلمة والفسقة فكرهوا دعوته ، فخافهم على نفسه وأتى العيينة »

هل يعني كلام الشيخ عبد اللطيف أن « عبد الوهاب » كان من « الأقلية » التي تابعت الشيخ ؟ إن كلامه لا يكشف لنا بوضوح عن هذه المسألة ...

ومهما يكن الأمر ، فإن الشيخ مضى يدعو إلى عقيدة التوحيد في حريملا ، حتى انتظم في سلك الإمام – كما يقول ابن غنام – « رجال وعصابة فحول ... وكان هؤلاء الرجال ملازمين للشيخ ... فقرأوا عليه كتب الحديث والفقه والتفسير ... وكان رحمه الله ، في تلك المدة ، يروّع كل معاند ومعارض ، فاشتهر حاله في جميع بلدان العارض ، في حريملا والعيينة والدرعية والرياض ومنفوحة ... فأتى اليه ناس كثير ، وانحاز لدعوته جمع غفير .

وكان الناس عند ذلك حزبين ، وانقسموا فيه فريقين : فريقاً أحبه .. وتابعه ، وفريقاً أنكر ذلك عليه ، وهم الأكثر .

... أقام رحمه الله ... ينشر أعلام التوحيد ... وصنف في تلك الأوقات : « كتاب التوحيد » ، حتى لهج بالانكار عليه كثير من ذوي العلم ... وركضوا مع الرؤساء والشياطين ... فقلدهم في ذلك العوام ، فكان للجميع على الإنكال

انتظام ... فجدّ في الرحيل والانتقال ، وذلك بعد أن هدى الله تعالى عثمان بن معمر لقبول هذا الدين ...

مدة اقامة الشيخ في حريملاء ، وقيمتها

كانت المدة التي قضاها الشيخ في حريملاء [1] – ولعلها لا تتجاوز أربعة أعوام: سنتين قبل وفاة ابيه ، ثم سنتين بعد وفاته – المرحلة الأولى « التأسيسية » من مراحل دعوة الشيخ في بلاد نجد ، وضع خلالها « كتاب التوحيد » ، الذي أوضح فيه انواع الشرك والبدع ، وحذر منها ؛ وأخذ يرسل كتبه ورسله إلى بلدان مختلفة من بلدان العارض لنشر عقيدة التوحيد ، وقد لقي أنصاراً في بعض المدن كالعيينة والدرعية، وقدم عليه طائفة من أهل العارض إلى حريملاء، وكان أعظم رجل كسبه إلى دعوته ، خلال هذه المرحلة : عثمان بن معمر ، أمير العيينة .

في العيينة

انتقل الشيخ الى العيينة ، وكان يترأسها أمير جديد ، هو « عثمان بن حمد بن عبد الله بن معمر » ، أحب الشيخ ، واعتقد بدعوته ، وأعلن ذلك بين رجاله المقربين ، ولعله هو الذي دعا الشيخ الى القدوم عليه ، بعد ان بلغه شدة ما يلاقيه من أهل حريملاء .

جاء الشيخ إلى العيينة ، بلدته وموطنه الأول ، وبقي – كما يقول هوتسما – ثمانية أشهر معتزلاً الناس،ثم جهر بدعوته، على نحو ما ذكر في « كتاب التوحيد»،

---

١ – يقول امين سعيد (يمكن القول ان هذه الفترة التي قضاها في حريملاء قد امتدت ١٥ سنة، اي منذ وصوله سنة (١١٣٩) الى سنة هجرته الاولى الى العيينة سنة (١١٥٣) – كذا – وقد بينا ان الشيخ لم يأت حريملاء عام (١١٣٩) وانما جاءها بعد ذلك بسنوات .. ولم يقم الشيخ في حريملاء ١٥ سنة ولا نصفها ولا ثلثها !

فلقي شيئاً من النجاح ، ولكنه لقي كذلك شيئاً من المقاومة ، وكان أخوه سليمان وكثير من أقربائه ضده .

ثروة الشيخ وزواجه

ويقول « هوتسما » إن الشيخ كانت له في العيينة أموال ، فلم يعش على مائدة الأمير ، وإنما عاش من ريع أملاكه ، وقد تزوج « الجوهرة » بنت عبد الله بن معمر وكان من الثراء بحيث يستطيع القيام بحقها .

حياة هدوء ووقار

ويصف لنا « ندرة مطران » - نقلاً عن « بلغريف ورفيقه الجريجيري » - حياة الشيخ بأنها كانت حياة هادئة وقوراً ، ثم اشتدت الخصومة بين أنصار الدعوة وخصومها ، فاضطر الشيخ الى الجلاء عن البلدة ، قال مطران :

« كانت العيينة يومئذٍ أهم مدن نجد ، وعلى مقربة منها يقوم ضريح زيد ، البطل الشهيد الذي يكرمه الشعب وينظر الى ضريحه كمقام مقدس ، تحمل اليه النذور والهدايا .

كان ذلك شيئاً مثيراً لأعصاب المصلح الوهابي ، ولكنه صبر ، حتى تأتي الفرصة.

كان يعيش في داره حياة هدوء وعزلة ، وكانت حكمته وهيبته وفصاحته ومعرفته ، بالإضافة الى ثرائه الواسع ، تحيطه بالوقار والاحترام .

وكان ابن معمر نفسه يعظمه ويجله .

شعر المصلح أن ساعة العمل أزفت ..

وفي ذات مساء ، سمع من شباك داره رجلاً يستغيث بزيد ، ويدعوه ، ليعيد اليه بعيراً أضاعه .. فصاح به الشيخ محمد : « أدع الله ، إله زيد ، يا رجل » !

وسمع كلامه الناس ، وراحوا يتجادلون فيه ..

ثم مضى الشيخ في دعوته بقوة ، وانقسمت البلدة على نفسها في أمره ، وكثر اللغط حوله ..

حماسة الأمير في نصرة الشيخ

يقول ابن بشر إن الشيخ « عرض على عثمان مـــا قـام به ودعـا إليه وقرر له التوحيد ، وحاوله على نصرته ، وقال :

« إنني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله ، أن يظهرك الله تعالى وتملك نجدا وأعرابها » !

فساعده عثمان على ذلك ، وأعلن الشيخ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتبعه أناس من أهل العيينة .

ويصف لنا ابن غنام وصفاً حاراً حماسة الأمير وتأييده العظيم للشيخ، فيقول إن عثمان « قام معه .. وقعد ، وساعده . واجتهد ، وأمر الناس له بالاتباع ، وعدم المشاققة والنزاع ، وألزم الخاصة والعامة أن يمتثلوا أمره وكلامه .. ويظهروا توقيره وإكرامه .. ففشا الدين في بلدان العارض المعروفة » .

وهذه الجملة الأخيرة في كلام ابن غنام ، تدلنـــا على خطورة الفترة التي قضاها الشيخ في بلدة العيينة ، وعظم إثرها في انتشار الدعوة .

كانت إقامة الشيخ في (العيينة)- ولعلها أربع سنوات وهناك من يزعم أنها أقل من ذلك - كبيرة الأثر في تاريخ الدعوة ، فقد استطاع الشيخ أن يحقق في العيينة بعض ما دعا إليه في كتاب (التوحيد) ، وعجز عن تحقيقه في « حريملاء » لانقسام أهلها على أنفسهم وطغيان حزب الضلال والفسقة على البلدة ، وقد كتب الشيخ ، في العيينة ، رسائل كثيرة يشرح فيها عقيدة التوحيد ويردّ على خصومها وبين أنواع الشرك ، وكان الناس يتداولون رسائله ، وكان أنصاره يتزايدون كل يوم ، في بلدان العارض .

هل كان الشيخ قاضياً ومطوعاً

ومن حقنا ان نتساءل الآن: هل كان الشيخ في العيينة مفتياً ومطوعاً وقاضياً ؟

قال صاحب الأحساء في كتابه إلى أمير العيينة: ان هذا المطوع الذي عندك..» يعني الشيخ محمد بن عبد الوهاب ! فهل كان الشيخ حقاً مطوعاً لبلدة العيينة ، أم

أن هذا « اللقب » إنما أطلق عليه لمجرد قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

لم يذكر « ابن غنام » ، شيئاً عن ذلك ، ولكن كلمة «مطوع» أصبحت تبدو لنا صغيرة في هذه الأيام لأنها لا تعني الآن منصباً دينياً كالقضاء ، وإنما تطلق على موظفين صغار ، كأنهم أفراد « الشرطة الدينية » .

أبرز أعمال الشيخ في العيينة

وقد نستطيع تلخيص الأعمال البارزة التي قام بها الشيخ في العيينة كما يأتي :

مكافحة الشرك عملياً ، وتحقيق أسلوب «سد الذرائع» ، وذلك بقطع الأشجار التي يعتقد فيها العامة ، وهدم القباب المبنية على القبور ، التي كانوا يتعبدون لها .

ويصف « بركارت » هـذا العمل بأنه أسلوب موفق وناجح جداً في كسب الشهرة والأنصار ، لأن الناس قد يعجزون عن فهم الأقوال التي تلقى على أسماعهم ، ولكنهم يؤخذون تماماً بالأعمال الغريبة التي يرونها بأعينهم .

« وهم إذا كانوا يعتقدون ، مثلاً ، أن قبر الولي يحميهم ، ثم وجدوه غير قادر على حماية القبة المبنية على قبره والثأر ممن هدمها ، آمنوا بأنهم كانوا على خطأ في الاعتقاد بقدرته على النفع والضرر !..

وبذلك تفعل الأعمال في إقناعهم أكثر مما تفعل الأقوال ! »

أشار الشيخ على أمير العيينة بقطع الأشجار وهدم القباب ، التي يذهب الناس اليها للاستغاثة والشفاعة ، ويدعونها مع الله أو من دونه ، وبذلك يرتكبون أفظع ألوان الشرك ، فأذن له الأمير بأن يفعل ما يريد ، وهو من ورائه ، يحميه ويعينه !

قطع الاشجار

ويقول ابن بشر إن الشيخ بعث إلى الأشجار التي يعظمها الناس « سراً من يقطعها ، بأجرة من ماله ، فقطعت » .

ويقول ابن غنام إن الشيخ « باشر قطع شجرة « الذيب » بيده [1] وأما شجرة

١ - لعل شجرة الذيب هي التي عناها ابن بشر بقوله: وفي البلدة شجرة هي اعظمهن عندهم، وذكر لي ان الشيخ خرج اليها بنفسه سراً يريد قطعها ، فوجد عندها راعي غنم اهل البلدة ، فأراد ان يمنعها منه او انه خاف ان ينم عليه ، فأعطاه الشيخ احد اسلابه الذي عليه ، وخلى بينه وبينها ، فقطعها .

« قريوه » فقطعها ثنيان بن سعود ومشاري بن سعود وهما أخوان لأمير الدرعية ، مع جماعة سواهما .

هدم القباب

ثم قام الشيخ ، والأمير عثمان معه ، بهدم القبة المبنية ، فيما زعموا ، على قبر الصحابي زيد بن الخطاب ، فقال لعثمان :

دعنا نهدم هذه القبة التي وضعت على الباطل ، وضلّ بها الناس عن الهدى ، فقال: دونكها فاهدمها .

فقال الشيخ : أخاف من أهل الجبيلة أن يوقعوا بنا ، ولا أستطيع هدمها إلا وأنت معي .

فسار معه عثمان بنحو ستمائة رجل ، فلما قربوا منها ، ظهر عليهم أهل الجبيلة ، يريدون أن يمنعوهم ، فلما رآهم عثمان علم ما هموا به ، فتأهب لحربهم وأمر جموعه أن تتعزل للحرب ، فلما رأوا ذلك كفوا عن الحرب وخلوا بينهم وبينها .

ذكر لي ان عثمان لما أتاها ، قال للشيخ : نحن لا نتعرضها !

فقال : اعطوني الفأس !

فهدمها الشيخ بيده حتى ساواها ، ثم رجعوا ..

فانتظر تلك الليلة جهال البدو وسفهاؤهم ما يحدث على الشيخ بسبب هدمها ، فأصبح في أحسن حال .[1]

قال ابن غنام : فلم يبق وثن في البلدان ، التي تحت يد عثمان !

وشاع ذلك واستبان .. وسارت به الركبان .. فأنكرت ذلك قلوب الذين حقت عليهم كلمة العذاب .. فأخذوا في رده والإنكار عليه .. وعجوا مطبقين على الشيخ بأنه ساحر ومفتر وكذاب ، وحكموا بكفره ، واستحلال دمه وماله ..

وكان أشد الناس والعلماء إنكاراً عليه .. وسعياً بالشر إليه : سليمان بن سحيم

---

١ – ابن بشر

وأبوه محمد ... فقد أتهم في ذلك وأنجد ... وحشر علماء السوء .. وبعث الطروس مترعة بالباطل والمين ، الى علماء الحساء والبصرة والحرمين ، فقاموا معـــه فوراً بالإنكار وأفتوا للحكام والسلاطين .. بأن القائم بدعوة التوحيـد : خارجي ، ومن أقبح الضُلاّل والفسّاق والكفّار وأشرّ الخوارج الفجار ... وحسبوا أنهم إذا حرشوا عليه الحكام يجدون في قتله .. فيفوزون حينئذ بما كانوا يؤملون ... فصنفوا المصنفات في تبديعه [1] وتضليله وتغييره للشرع النبوي .. وعدم معرفتـه بأسرار العلوم .. وسطروا فيها الجزم بكفره » .

وبلغ من سوء نيتهم ومكرهم أنهم أنكروا من الشرع الأمور المعروفة فذكر لنا أنهم أنكروا على عثمان بن معمر أدبه من تخلف عن الصلاة في جماعة المسلمين .. وجباية الزكاة .. وغير ذلك من أمور الدين .

وكان كثير من علماء نجد .. يأتون رؤساء البدوان ويحذرونهم من وقوع الصلاة في حيهم وسماع الأذان ...

وأشد ما حملهم على ذلك .. إعلان الشيخ التمسك والاعتصام بالسنة والكتاب، والعمل بما جاء من هدى الأصحاب، وبما اختاره الأئمة الأربعة الذين شاعت مذاهبهم في الامة، فهو وإن كان التزم مذهباً، فلا يقدمه على النص القاطع ولا يتعصب له ..

ومع كل هـــذا الذي صنعه خصوم الشيخ ، لم يدركوا بغيتهم ، وبقي أمر الشيخ في ازدياد [2] !

رجم المرأة الزانية

وفي تلك الأم، جاءت امرأة من اهل العيينة إلى الشيخ وأقرت على نفسها بأنها زنت ، وهي محصنة ، فأراد الشيخ أن يلتمس لها عذراً ، فلعلها مجنونة لا تعقل ،

---

١ – اي بأنه صاحب بدعة منكرة .

٢ – قال ابن غنام (كثر بعد ذلك صحبه وجمعه وزاد اعلانه بالتوحيد وصدعه، وردعه اهل الشرك وقمعه ، ومن العداوة ما يسرك نفعه ..

واذا اراد الله نشر فضيلة ... طويت اتاح لها لسان حسود.)

أو مغصوبة لا إرادة لها ، ولكن المرأة كانت عاقلة ، وأقرت للشيخ أربع مرات بأنها أقدمت على فعلتها الشنعاء بمحض إرادتها ، فلم تكن للشيخ مندوحة عن الأمر برجمها .. « فخرج الوالي عثمان وجماعة من المسلمين فرجموها حتى ماتت ، وكان أول من رجمها عثمان »[1] .

أثارت هذه الحادثة ضجة عظيمة في بلدان العارض بل تجاوزتها كثيراً ، وكانت وسيلة الى حملة جديدة عنيفة ماكرة ، اشترك فيها خصوم الشيخ كلهم ، فزعموا ، فيما زعموه ، أن الشيخ لا صفة له تخوله الحكم والرجم ، وإنما يجب أن ترفع القضية إلى السلطان ، ليأذن برجمها !

وقد رد عليهم الشيخ ، وبيّن لهم ان ما فعله هو حكم الله ، المؤيد بالسنة والجماعة ، ومما قاله الشيخ إن الأئمة من كل مذهب مجمعون : (أن من تغلب على بلد أو بلدان ، له حكم الإمام في جميع الأشياء ، ولولا هذا ما استقامت الدنيا ، لأن الناس في زمن طويل ، قبل الإمام أحمد إلى يومنا هذا ، ما اجتمعوا على إمام واحد ، ولا يعرف أن أحداً من العلماء ذكر أن شيئاً من الأحكام لا يصح إلا بالإمام الأعظم . وقولك : هل يجب عليك ؟ فنعم ، يجب على من قدر عليه ، وان لم يفعل أثم ، ولكن أعداء الله يجعلون هذه الشبهة حجة في رد ما لا يقدرون على جحده ، كما إني لما أمرت برجم الزانية قالوا : لا بد من إذن الإمام ..

فإن صح كلامهم ، لم تصح ولايتهم القضاء ، ولا الإمامة ولا غيرها ! »

لم يستطع العلماء المكابرون الصمود للشيخ محمد في ميدان الحجة والمنطق ، فلجأوا الى الافتراء والمكر ، وكتبوا إلى رئيس الأحساء وبني خالد: (سليمان آل محمد) ، الذي يعرفون أن أمير العيينة يدور في فلكه ، وينقاد إلى أمره ، وقالوا له ، فيما قالوه من الأكاذيب : إن الشيخ يريد إخراجكم من ملككم ، وإثارة الناس عليكم ، وأقل ما يقوله للعامة إن المكوس والعشور التي يأخذها الأمراء باطلة لا يقرها الدين ، وها هو يرجم امرأة بغير حق .. إلى غير هذا من الإفك والبهتان ..

---

١ – ابن غنام .

ويقول ابن غنام إن رئيس الحسا كان مغرماً بالزنا ، مجاهراً به ، فأغضبه رجم الشيخ للزانية ، بينما يزعم المؤرخ الفرنسي « ميشو » إن تلك المرأة كانت قريبة لامير الحساء ؛ ومهما يكن الأمر ، فقد كتب رئيس الحساء الى عثمان ، يطلب منه تأديب الشيخ !

وهنا تختلف الروايات ..

١ – فهوتسما يقول: إن رئيس الحساء طلب نفي الشيخ من العيينة وإخراجه.

٢ – وميشو يقول : إنه طلب منه أن يسلم إليه الشيخ ليتولى هو عقوبته ، ولكن امرأة الشيخ ، وكانت قريبة لأمير العيينة ، عرفت بذلك ، فأخبرت زوجها ، فالتجأ إلى ابن سعود .

٣ – وابن غنام يقول إنه أمر عثمان بقتله أو إجلائه عن وطنه ، وألزم عليه في ذلك غاية الإلزام.. وصرح له.. بأنك إن لم تفعل فمالك عندي مستباح..فآثر عثمان الدنيا على الدين .. وأمر الشيخ بالخروج ، ولم يكن إلى قتله سلم ولا عروج ، فخرج الشيخ الى بلد الدرعية .

٤ – اما ابن بشر فيقول ان سليمان ارسل الى عثمان كتابا يقول فيه :

« إن هذا المطوع الذي عندك ، فعل وفعل ..

وتهدد عثمان ، وقال : « اقتله : فإن لم تفعل ، قطعنا خراجك الذي عندنا في الأحساء . »

قال ابن بشر : وخراجه عندهم كثير ، قيل لي إنه اثنتا عشرة مئة أحمر (دينار ذهب) ، وما يتبعها من طعام و كسوة ، فلما ورد عليه كتابه، ما وسعه مخالفته . فأرسل إلى الشيخ ، وقال له :

– إنه أتانا خط من سليمان ، قائد الأحساء ، وليس لنا طاقة بحربه ولا اغضابه.

فقال له الشيخ : إن هذا الذي أنا قمت به ودعوت إليه، كلمة « لا إله إلا الله» وأركان الإسلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإن أنت تمسكت به ونصرته ، فإن الله سبحانه يظهرك على أعدائه ، فلا يزعجك سليمان ولا يفزعك ، فإني أرجو أن ترى من الظهور والتمكين والغلبة ما تملك به بلاده وما وراءها وما

دونها .

فاستحى عثمان ، وأعرض عنه .

ثم تعاظم في صدره أمر صاحب الأحساء ، وباع الآجل بالعاجل ،

وذلك لما علم الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى، يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، ان نصر هذا الدين والظهور والغلبة والتمكين يكون لغيره وعلى يد غيره فأرسل إلى الشيخ ثانياً ، وقال :

– إن سليمان أمرنا بقتلك ، ولا نقدر على غضبه ولا مخالفة أمره ، لأنه لا طاقة لنا بحربه ، وليس من الشيم والمروءة أن نقتلك في بلادنا، فشأنك ونفسك وخلّ بلادنا [1] !

---

١ – يقول مؤلف « تاريخ الأحساء » انه قيل لسليمان ، حاكم الأحساء : « انه قد ظهر في بلاد ابن معمر ، عالم يضلل الناس ، ويعتقد تكفير المسلمين ، فكتب الى ابن معمر بقتله » . وهكذا اغفل قصة المرأة الزانية ، وجعل مسألة تكفير المسلمين وتضليلهم السبب في غضبة حاكم الأحساء على الشيخ ودعوته .

روايتا اللمع عن حياة الشيخ في العُيَيْنَة

أورد « لمع الشهاب » روايتين عن مقام الشيخ في العيينة وخروجه منها – وقد سمى العيينة في الرواية الأولى : « اليمامة » ثم عاد في الرواية الثانية فذكر اسم « العيينة » – ومن الصعب التثبت من صحة أقواله ، ولكننا ننشرها كوثيقة تاريخية ، لا تخلو من بعض الحقائق ، ويزيد في حرصنا على ذلك أنها لم تنشر من قبل في أي كتاب عربي .

رواية اللمع الأولى

قال مؤلف اللمع :

« حدثنا بعض الثقات المعاصرين لمحمد بن عبد الوهاب وقد أدركناهم شيوخاً في الزبير .. يقول : حقيقة الأمر في بدعة محمد بن عبد الوهاب هو أنه لما رجع من سياحته المدة المعلومة واستقر ببلدته اليمامة – وكانت ضعيفة بالنسبة لسائر بلدان نجد وكان الناس تفرّ منها بسبب ظلم حدث فيها بجور حكامها وولاتها وكان فيها التعدي معروفاً دون غيرها وقد زاغت قلوب أهلها عن الوفاق وامتلأت من النفاق حتى قيل ان « اليمامة » كان يسكنها خلق كثير بقدر ستة آلاف بيت أو أكثر

وكانت بأيام محمد بن عبد الوهاب يسكنها ثلاثمائة بيت — قال المحدث الثقة : لما أراد محمد بن عبد الوهاب ظهور « البدعة » جلس في بيته ثمانية أشهر معتزلاً عن الناس ينظر في الكتب دائماً فحين مضت المدة ، خرج على الناس يوماً ، وفي يده كتاب صغير الحجم فقال : « أشهد الله أني مقتف ما في هذا الكتاب وأنا أقول إن الذي سطر فيه هو الحق لا غير . »

فقام رجل اسمه « علي بن ربيعة » وهو من كبار بني تميم من قبيلة بني سعد فقال له : يا محمد أنت رجل شريف في قومك لا تقل ما ليس حقاً ، فتندم بوقوع الفتنة بين الناس .

قال : هذا الكتاب اقرأه فإن وجدت فيه خللاً عاتبني به ، فأخذ الكتاب وجعل ينظره من أوله إلى آخره ثم ردّه اليه قائلاً : هذا حق ، فبيّن لنا كيفية سلوكه وما ينبغي أن يتبع بسبب رواجه .

فقال له محمد بن عبد الوهاب:طريق رواج هذا الأمر النصيحة وبذل المعروف.

فقال له علي بن ربيعة : فان لم يجرِ بذلك ؟

قال : بالسيف !

فقال : كيف يستحق القتل من لا يتبعه ؟

فقال : لأنه كافر مشرك !

قال : تقول هذا ؟

قال : نعم وهو اعتقادي .

فتفرق المجلس ، ورجع هو الى بيته ، فجاءه ابن عمه « عبد الله بن حسين » ، وقال له : أحقاً ما نقلوه عنك يا ابن عمي من الخروج بهذا المذهب ؟

قال : نعم !

قال له : والله الذي لا يعبد غيره إن دعوت أحداً من بني سنان إليه لاختطفنا رأسك !

فوقع بينهما تشاجر وجدال ، فأومأ عبد الله اليه بالسيف فأصابه بيده ، وكاد أن يبرئها فقام بعض بني أعمامه ليمنعوه ، فوقعت الفتن بين قبائل تميم اليمامة ،

قيل : قتل ذلك اليوم حماد بن رشيد السعدي وصالح بن فهد النائي وجبير بن ناصر النهدي وسبعة نفر لم يسموا بأسمائهم إلا أنهم من بني سنان خاصة .

قال الراوي : ثم بقي محمد بن عبد الوهاب سنة كاملة في اليمامة قائماً بما هو فيه من الدين ولم تبرح الفتنة بين القوم بسببه ، فبعض يصدقه وآخر يكذبه الى أن صار القوم الذين نصروه أذلاء ، فانهزم منهم اناس وآخرون قتلوا وبعض لبثوا في بيوتهم وحصونهم وشاع أمره في أرض نجد فسمع بذلك سليمان بن شامس العنيزي وكان كبير قومه البداة وكانوا ينزلون طرف العارض فأرسل الى كبار اليمامة من تميم وغيرهم أن هذا أمر حدث عندكم وقد أخرجه فلان العالم منكم فإياكم ومتابعته ولا تجعلوا له مسكناً ولا مأوى في اليمامة فان بلغني عنكم ابراره واكرامه ومنعته لأركبن عليكم بفرسان ورجال لأوجولن عليكم بعنزة كلها ..

فلما بلغ أهل اليمامة كتاب سليمان بن شامس ، قال بعضهم لبعض : يجب علينا امتثاله فان عنزة قوم ذات حرب وصولة ، ونحن قليلون لم نبلغ معشارهم لا رجالاً ولا مالاً ، وان ما دعانا اليه سليمان حق لا ينبغي العدول عنه ولا التهاون فيه ، مع أن محمد بن عبد الوهاب ليس بعزيز علينا كعزة أنفسنا وأعراضنا ، كيف وهو أتى ببدعة كفر وقصد تكفير المسلمين بها . فاتفق رأي الجميع على اخراجه من بيته قهراً ، حتى بنو أعمامه عزموا على ذلك ، فنادى مناد يوم الجمعة ، أن اجتمعوا بعد صلاة الجمعة على اخراج محمد بن عبد الوهاب من بلدتكم فان أبى فاقتلوه ، فلما سمع أخوه على بن عبد الوهاب ، وكان هو غير عالم وحقير بينهم ، جاء الى أخيه محمد بن عبد الوهاب وقال له : يا أخي أنصحك لله تعالى أن تطلع هذا اليوم من اليمامة وتمضي الى حيث شئت ، فإن أرض الله واسعة ، وإن كان هذا الذي ادعيته حقاً فالله يسخر قلب أحد من خلقه ليبديه ويحميه ، فاستحسن رأي أخيه علي وقال : « كيف المسير هذا في وسط النهار وأنا لا أخرج من بين عشيرتي وقومي وبلادي الا بجميع أهلي وعيالي ومالي وأخشى أن يتعرضني أحد من سفهائهم ، والغيرة تمنع القبول بذلك ، نعم اذهب الى علي بن ربيعة وعبد الله بن حسين وخذ لنا ذمة وأمانا منهم

فان أعطوك ذلك خرجنا هذه الساعة، والله المعين،وان عرفت منهم ما ينكر الحال فالله المستعان ، لما نزل في حقنا ، هذا ودفع الصائل واجب ، وإنما خصّ علي بن ربيعة وعبد الله بن حسين السناني لأنها هما اللذان يخافهما ولانهما المتوليان زمام القبائل التي في اليمامة من بطون تميم ، فسار أخوه علي بن عبد الوهاب اليهما فأتاهما ، وقد تمت صلاة الجمعة ، وقد خرج الناس من المسجد الجامع بأسلحتهم مصممين على أن يمشوا دفعة واحدة على حصنه ويأسروا عياله ويأخذوا ماله ولا يرضوا له بأمان إلا على نفسه وحده ، ويلزموه بأن يخرج من البلد بساعته !

قال بعض من أخبرونا بهذه القصة إن محمد بن عبد الوهاب كان عنده مال كثير كان قد جمعه من سياحته وقد عرفه أهل بلاده وكان عنده خدم سبعة أو ثمانية عبيد سودان اشتراهم من مكة وكان كل منهم محارباً مسلحاً يظن به النجدة وكان معه ولداه اللذان ولدا له قبل سياحته وهما«ناصر» و«عبد الوهاب»وكان معه أربعةرجال من بني عمه القريب أبنا حسين بن عبد الوهاب اخوة عبد الله بن حسين الذي ذكرناه لهذا كان يحسب نفسه في عصمة ويستطيع أن يقاتل على حصنه محاصراً ، فلما قال أخوه علي بن عبد الوهاب لعلي بن ربيعة وعبد الله حسين ما قال لهما قبلا ذلك فذهبا الى محمد بن عبد الوهاب وقالا له : هذه ذمتهم قد أعطوك اياها ، فهيأ نفسه وعياله ومن يتبعه للخروج فخرجوا ذلك اليوم قبيل غروب الشمس فأتوا الوادي وهو قرية محمد بن سعود .

رواية اللمع الثانية

« حدثنا رجل من أهل الدرعية يوثق بقوله ان محمد بن عبد الوهاب أول أمره لما خرج من قومه ومنزله بما أراده من الأمر ، جلا الى (العيينة) قبل دخوله الدرعية واتفاقه مع محمد بن سعود فالتجأ الى عثمان بن معمر التميمي حاكم (العيينة) ، فاتفقا على اقامة هذا الأمر والدين والعمل بالشرع الشريف اذ لا ينفع علم بدون عمل قط واجتمعا على أن يبطلا جميع ما سوى هذا المذهب من المذاهب وغيرها عموماً ووافقهم على ذلك كثير من أهل العيينة من وجوه البلد واعيانها من

خدم ابن معمر وحشمه ، وبعض الناس الذين هناك لم يرضوا به ، فاستمر محمد بن عبد الوهاب مـــدة في العيينة ، وربما أتاه بعض القوم من بلاد نجد لما سمع بصيته الى العيينة وبايعه، وتاريخ وقوعهذا الأمر في آخر سنة الخمسين بعد الالف والمائة، وأما أكابر ومشايخ سائر أهل نجد فلم يرضوا بشيوع هـذا الدين لانه يفسد عليهم قوانين كلية وقواعد اصليـــة وضعت عليها حكومتهم اذ بلاد نجد وقبائلها... لا ضابط لها يحتوي على الكل ، وليس هناك رئيس قاهر يردع الظالم وينصر المظلوم بل كان كل من الحكام حاكم بلده ، مدينة كانت أم قرية، وفي البدو، كذلك كل طائفة منهم لها كبير يرجع أمرهم إليه ، والبداة إذ ذاك قبائل شتى يرعون البراري والقفار ويشربون المناهل والآبار وحكومة كل شيخ في قبيلته برضاها ، وكل من تقدم كرماً وشجاعة رضوا به كبيراً لهم ، وفيهم مشايخ صغار في نفس القبيـــلة الواحدة يخالفون رأي المشايخ الكبار ، وكان البـــدو يتحاكمون في قصصهم الى العرف لا الى الشرع وقد يأخذ العرف منهم الرشوة وهي حقيقة ما يعطى لابطال الحق وأولئك الحكام طاغون لكونهم يصدون الناس عن اتباع حكم الشريعـــة ، وأما الحضر من أهل نجد فمرجعهم الى الشرع في فصل الخصومات والدعاوى ما عدا وادي الدواسر وجبل شمر لأنها الى البدو أقرب منها الى الحضر ، وكان أهل المدن من أهل نجد ، دائماً يحارب بعضهم بعضاً على حسب مقتضى الحال وصلاحـه بنهج ما قررناه فيما مر من أن كل حاكم له حوزته الخاصة فاذا أراد ملك غيره تسخيره حورب من جميع البلدان وهكذا الشأن بينهم أبداً وقد يقع بين كل أهل البلدان صلح إذا قطع الطمع ظاهراً .

فلما حررناه ، غضبت حكام نجد مطلقاً إلا من عرفت منهم وهو عثمان بن معمر ومحمد بن سعود صاحب الدرعية كما ستقف على حقيقة الأمر .

وحين رأى أكابر نجد ما صدر عن محمد بن عبد الوهاب وما يخشون من عـاقبة صنعه شكوا ذلك الى سليمان آل محمد الحميدي الخالدي حاكم بني خـالد والأحساء والقطيف وقطر كلها فالتمسوا منه أن يمشي على العيينة ويجليه من بلده ، وإنمـــا

استمدوا من سليمان هذا لأن أهل نجد (كانوا عاجزين عن قهر[1] ابن معمر ذلك الوقت، إذ هو في غاية المنعة والنصرة و كثرة الجنود والمال الكثير لأن بلاده أكبر مدن نجد و أكثرها محصولاً وخراجاً وأهلها أطوع لحاكمهم من غيرهم ، فلما بلغ خبر محمد بن عبد الوهاب الى سليمان آل حميد بما بلغ ، كتب كتاباً الى عثمان بن معمر « ان اخرج هذا الشيخ النجدي من بلدك الى آخر جزيرة العرب أو أرسل به إليّ وأنا أبصر به ، فإن لم تجبني الى أحد هذين الأمرين أقطع وظايفك التي لك في الأحساء وأمنع جباتك عن تحصيل مالك من النخيل في الحسا » ، وكان لعثمان ابن معمر في الأحساء مال ونخيل وأرض ورثها عن أكابره واجداده ويبلغ محصولها كل عام ستين ألف ريال ذهباً .

وذكر له أيضاً : « بأني أمنع تجار بلدك عن التردد الى أطرافنا من الأحساء وقطيف وسواحل قطر كالزيارة وغيرها ، بل أمنعهم السفر عن كل بلد أنالهم فيها» .

وكان آنئذ سليمان بن محمد له اليد الطولى في أرض العرب لا سيما نواحي العراق مما يلي بلاد نجد وفي نجد نفسها و كذا أطراف الشام اذ معسكره كبير ودولته عظيمة وشجاعته معروفة وقومه الخوالد اهل بأس شديد وخلق عديد ، وكان يغزو نجداً ان لم يرضه حكامها كل واحد بشيء .

فلما وصل كتاب سليمان .. الى عثمان .. اهتم و كره عداوة سليمان .. وغضب أيضاً لخروج محمد بن عبد الوهاب عنه ، ولكنه ارتكب أخف المحذورين بإبداء المعذرة لدى محمد بن عبد الوهاب فلقيه وقال له ان محاربة هذا الرجل « يعني سليمان .. » تصعب علينا أول الأمر ، وقد أكد القول بكيت وزيت .. فالرأي بعد هذا أن تسير من العيينة على بركات الله الى أي بلد شئت من أرض الله وتقيم فيها سنة أو سنتين حتى نرى كيف يفعل الله بعد ذلك ثم مرجعك الينا .

فقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : لا تخش من هذا الكلام فان الله ناصرك ، وان جميع المحاصيل التي تتحبس عنك أنا اسلمها اليك كل عام ، ودع هذا الأمر

---

١ - في الأصل كلمات غير مفهومة جعلنا مكانها الكلمات الموضوعة بين قوسين .

يجري رغما على أنف الكاره له !

لكن بعد ما بذل محمد بن عبد الوهاب النصائح لعثمان بن معمر أن يواظب على هذا الدين وترويجه ، عرف أن عثمان لا يمكنه الآن الاستقامة عليه ظاهراً ، فانتقل محمد بن عبد الوهاب من العيينة الى بلد الدرعيـــة - وقد تحدثنا ، في الفصول السابقة ، عن هجرة الشيخ الى الدرعية ومقامه فيها ومنعته وزعامته واشتراكه مع ابن سعود في تأسيس الدولة .